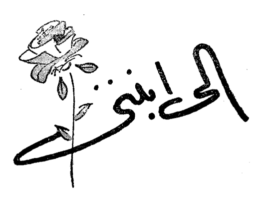

الى ابنتى
بقلم
نعمات أحمد فؤاد

نعمات أحمد فؤاد



١٩٥٦

الناشر

مكتبة الخانجى بمصر

ومكتبة المثنى ببغداد

للكاتبة

كتب ظهرت :

* أدب المازني
* ناجي الشاعر
* دراسة في أدب الرافعي
* الأخطل الصغير (شاعر الهوى والشباب)
* أم كلثوم

تحت الطبع :

* رامي (شاعر الشباب)
* شعراء معاصرون

مطبعة دار الهنا بشارع الصحافة ببولاق مصر

هـــذا الكتاب

جرت العادة أن ينصح الآباء الأبناء ، ولكن الأمهات يكتفين بالأمل المرنم فى المهد ، والبث الهامس فى الرشاد . أما أن يكتب الأمهات أحاسيسهن وهى عميقة ، ويصورن مشاعرهن وهى جمة غنية بالألوان فذلك منهن قليل نادر . . .

إن أدبنا العربى مثلا فيه عبارات قليلة موجزة من أم لابنتها أو ولدها ولكنها لا تعدو أن تكون إشارات تومىء ولا تحيط .. إنها لا تشبع ذلك الدفق من العواطف فى صدر أم .. ومن ثم كانت حاجتى ملحة إلى الكتابة إليك ولك ، فكان هذا الكتاب .

ومع هذا فكتابى أو كتابك كثيره منك وقليله منى بل هو كله من وحيك ومعانيك .. فقبلك لم يكن قلبى يعرف طريقه إلى يدى بهذه السهولة والغزارة .. إنه نبعك تحدر فى صدرى حناناً وصفاء وحباً ، فعب قلبى منه عللا بعد نهل وما ارتوى كقلبى وعينى وسمعى على كثرة لعب ، وطول الرشيف .

ستطالعين يا ابنتى فى هذا الكتاب موضوعات زمنية لو صح هذا التعبير أى أوحى بها حوادث معينة فى زمن معين ولكنى أثبتها هنا لمكانتها عندى إبان وقوعها فهى جزء من تاريخ مصر . . . جزء عزيز من واجب الأمهات أن يلقنه البنات والبنين . . . ثم هو بعد هذا جزء من تاريخك أنت أو تاريخى معك . . . أليس مولدك حدثاً عظيما بالنسبة لى ؟ وغدا بالنسبة إلى وطنك كما أشتهى .. بل بالنسبة إلى الإنسانية كما أتمنى ؟ .

أما القسم الآخر من هذا الكتاب فهو صور من الحياة وتوجيهات فيها . . . إنه مشاعل على طريقك تنتظم عليها خطواتك وتبصر، ويتكشف فى ضوئها لك الهدف ويستبين .

إنه لك وللبنات المصريات جميعاً . . فإن بنوتك عمقت حبى لوطنى، وأصلت المعانى الجماعية فى نفسى. فمنذ مولدك أنظر إلى كل طفل بعينى أم . أرى فيه صورتك وأسمع فى لغاه صوتك . . إنه نعيم أم أخرى كما أنك هنائى ومناى . .

الكتاب يا حنانى هديتى إليك فاجعليه هديتك إلى رفيقاتك فإنهن أيضا مقصودات به . .

بل اهديه إلى ابنتك، إلى حفيدتى منك، باسمى واسمك معا . . . أليست بضعة منى هى الأخرى ؟ .

* * *

ياطول حنينى إلى ذلك اليوم الذى تمسك فيه حنان كتابى هذا وتقرأه .

ياطول حنينى إلى ذلك اليوم الذى تتفتح فيه حنان بين يدىّ كما تصورتها فى هذا الكتاب .

ياطول حنينى إلى ذلك اليوم الذى يسفر لى عن حنان زوجة مثالية، ثم أُما مثالية .

ياطول حنينى إلى كل جميل وعظيم ونبيل من الصفات والسمات والآثار تمنحه السماء بلا حساب لابنتى .

عندك الكثير ياسماء فزنى أعزه وأنفعه إلى الناس .

و . . . إلى ابنتى ؟

نعمات أحمد فؤاد

الفهرس

رأيت وقرأت

ختام

همسة

ابنتي .. إن بدا لك يوما أن تعتزي بهذا الكتاب فاذكري

معنا بالحمد الصديقين الفنانين الاصيلين الاستاذ عبد السلام الشريف

الذى أهدى إليك صورة الغلاف ، والاستاذ عبد المجيد وافى

الذى أهداك لوحات الكتاب . . . لقد قرأا كتابك قبلك وعاشا

فيه وصوراه بطريقتهما فعيشى بدورك فى فنهما الجميل عساه

يغناه وحلاه يلهمك بعد أن يسعدك .

حسب كتابك أن جلىّ صداقات ، ووسع أعمارا وزاد رصيدنا

من الحب والود والولاء .

نعمات



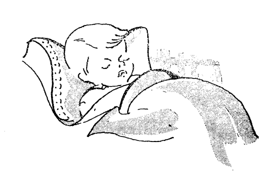
هذه مناجاة ومناغاة بعضها
سمعته أذناك منى وأنا أقرب وجهك
من وجهى وأتحسسك بعينى وأشم
عطر طفولتك بحواسى كلها ..
والبعض الآخر قد يكون صدرك
أحسه فى الدفء المنبعث من صدرى
وهو يحنو عليك ويكاد يحتويك
وهو يهديك الحياة لبنا سائغا ..
ليس كل ماورد فى هـــذا
الباب كتب اليوم لينشر فإن منه

سطورا كتبت حينما كنت جنينا
لم تبد بعد للدنيا طلعته كمقال .

(إلى ولدى)

لقد كتبت لك مقال (حنان)
فى اليوم الثالث للولادة وأنا فى
سريرى لايستطيع جسمى الحركة
ولكن قلبى كان يخفق وصدرى
كان يزخر بالمعانى وفى غفلة من
طبيبى طلبت من والدك ورقة وقلما
وكتبت لك مقال (حنان) . . .

ولما عدنا معا إلى البيت
فتحت لك كراسة خاصة أسجل فيها
يوماً بيوم مايحدث لك فى اطوار
نموك وما يبدو منك ومنى . .
فلما نبتت فكرة هذا الكتاب فتحت
الكراسة واخترت منها « هوه »
و « عيدك الأول » و « دمعة »
وستجدين فى كراستك الكثير
غيرها مما هو خاص بك وبى فلا
يصلح أن نعرضه للنشر . . .



الى ولدى . . !

إليك فى هذا الوقت الذى أترقب فيه مولدك أكتب هذه الخطرات . . . خطرات نفس أمك التى كثيراً ما ينتزعها الخيال من عالم الواقع ودنيا الناس ليطير بها على أجنحته فى آفاق بعيدة تتمثل فيها لعينيها غلاما ذكياً تتفتح بين يديها مع الأيام كالزهر ، وتتضوع حولها كالعطر ، وتشع فى بيتّها الصغير الكبير نوراً

ليس كمثله نور ، وتشيع فى عشها الأنس والبهجة ، وتملاه زياطا كشدو البلابل وضجة تسمعها الآن قبل أن تحدث فتحسها أحلى من تطريب الناى وحنة العود . . إن كل الذى بينى وبينك الآن سريان فى الحشا يخفق له قلبى ، وتضيء له روحى ، ويكبر معه فى الحياة أملى ، ويلتهب به شوقى إليك . . ولكنى وإن لم تكتحل عيناى برؤيتك بعد ، دائمة التفكير فيك . ولا أكتمك أنى كنت فى شهورك الأولى أتمنى لو تأخر مجيئك ، لازهداً فى نعمة وجودك ولكن إشفاقا عليك من دنيانا ، وضنا بك على المحن التى كان يقاسيها وطنك وقومك . . كانت دنيانا عابسة مكفهرة ليس فيها ضمان للأرزاق ، أو اطمئنان إلى المصائر ، أو ثقة فى حاضرها ، أو أمل فى مستقبلها . ووسط هذا الظلام كله تعز السلوى ويقل العزاء . . وكلما أظلم الجو حولنا يشتد وجيبى وأتجه إليك ساهمة . . . ترى ماذا يكون مصير هذا الجنين عندما يخرج إلى هذه الدنيا العاصفة . . هل سينال طرفا من خير وطنه أم يزيد عدد المحرومين واحدا؟ هل يرتوى من نبع نهره أم يزيد عدد الظماء لهفانا ؟ هل يحظى عقله بالمعرفة والنور أم يزيد عدد الأميين حيرانا ؟ . . وتتعاون هذه الأفكار على صدع رأسى فلا أجد منها مهربا إلا اللياذ بالأمل فى

الله أسلم إليه أمرى وأمرك وأمر وطن بائس مرهق لهيف ..

كنت أخشى يا بنى أن تأتى وتكبر ثم تتلفت حواليك متطلعا إلى المثل الأعلى بين الرجال وتجهد نفسك فى البحث فيرتد إليك طرفك خاسئاً وهو حسير .. إن الرجال حتى الكبار منهم أو الذين دعوناهم كبارا ، حتى الذين وفرت لهم الدنيا من عروضها فوق حاجتهم مهما أسرفوا ، كلهم عبدوا الطاغوت ، كلهم طأطأوا الرءوس ونكسوا الأعناق .. كلهم تمرغوا فى ترابه زاعمين أنه التبر بعد أن وطأته قدماه .. كلهم سخرونا كرها من أجله ، وألهبوا ظهورنا بسياطه .. كلهم جمعوا أموالنا باسم القانون ليقدموها له لتقربهم إليه زلفى .

كنت أخشى يابنى إن أعوزك المثل الأعلى بين رجال السياسة ، أن تبحث عنه بين رجال الفن فتجد الكتاب وقادة الفكر يكذبون على أنفسهم وعلينا مسبحين بحمد الطاغية ، خالعين عليه من الفضائل ما هو عاطل منها ، ناسبين إليه كل أثر فى نهضتنا ، عازين إليه كل مظهر من مظاهر الإصلاح ! كأنهم لم يقنعوا بما فى تركيته من غرور موروث فراحوا يوهمونه أنه فوق مستوى البشر حتى كاد يصيح فينا : أنا ربكم الأعلى . أما الشعراء فنظموا بدورهم

القصـــيد فى الشيطان زاعمين أنه النور والاشراق لا النار والاحراق . ولم يتخلف الموسيقيون والمثالون عن موكب العبيد فرقرق الأولون الألحان غناء للركب ، ونحت الآخرون الأصنام تخليداً للسيد وأسلافه .

كنت أخشى يابنى أن تدخل المدرسة فيدسون عليك تاريخاً مزيفاً لبلادك ، فقد جارى المربون لنا، الفساد المستشرى فمسخوا الحقائق ، وشوهوا الوقائع ، وافتروا على التاريخ . كنت أشفق عليك أن تتعلم أن « عرابى » الثائر على الجراكسة والأتراك المنادى بحكم الدستور خائن ، وأن « توفيق » الذى جلب علينا الاحتلال ودنسنا بعاره هو الوطنى . كنت أخشى أن تتعلم أن « إسماعيل » الذى استدان من أجل شهواته حتى لم يبق على شىء من رصيدنا ، حتى باع حصتنا فى قنال السويس ، اسماعيل الذى لم يكن الطاغية الأخير الطريد إلا إنعكاساً له فى كل شىء ، كنت أخشى أن يلقنوك أن « إسماعيل » هذا هو الذى جعل مصر قطعة من أوربا كما لقنونا ، فلم نفطن إلى مينهم وبهتانهم إلا بعد أن مررنا بتجربة قاسية وقاك الله ورفاقك منها .

كنت أجزع يا بنى أن ترى وتسمع وتحس كل هذا فيلتاث

الأمر عليك وتقع من بلبلة أفكارك فى شبه دوامة لا تدرى معها أين المفر ، أو يتعاظمك لقلة تجربتك وغضاضة سنك موكب العبيد من شدة الزحام فتحسب أن الاجماع دليل الصواب وتنخرط فى الركب وأنا أنفر أن ألِد عبداً ، أو تكره على الانخراط فيه عنوة وقسراً ، وأنا لا أريد أن أنجب مستعبداً . فإذا ما تمردت يا بنى على الهوان ورفض كبرياؤك أن تشرك مع الله إلهاً آخر ، فإنى أهلع أن يحيق بك العذاب ألوانا فلا يقوى قلبى الذى عصره موت جدك . على آلامك يا صغيرى الحبيب .

ولكنى اليوم يا بنى أدعو الله فى صلاتى أن يتم علىَّ نعمتك ، وأبتهل إليه أن يرعى مولدك ، ويكتب لك الحياة بل العمر الطويل لأن الظلام انجاب ، والنور انساب ، واليأس تبدد ، والأمل أشرق ، ووطنك تحول من النقيض إلى النقيض فأصبحت الحياة فيه سلاما ، واستحالت دموعه الغزار ابتساما .

إنى الآن كثيراً ما ينتزعنى الخيال من عالم الواقع ودنيا الناس ليطير بى على أجنحته فى آفاق بعيدة تتمثل فيها لعينى مصريا سعيداً فى الوطن المصرى السعيد . كما يتمثل لعينى وطنك كما خلقه الله ، جنته فى الأرض . وأراك وسط هذه الجنة التى يجرى فيها النيل

كالعصفور الطليق مرحا غريداً لأن حولك فى الوادى الخصيب الماء والثمر والزهر.

٧ ما أهنأ قلبي.. إن مستقبلا زاهراً ينتظرك وينتظر وطنك قد بزغ فجره الآن قبل بزوغ فجرك. مستقبلا مشرقا بالعلم، غنياً بالصناعة، ناعما بالمال، رفافا بالحضارة، حاليا بالخلق، محصناً بالحرية، عزيزاً بالكرامة.

لقد خف عنى وعن أبيك وعن غيرنا من الأمهات والآباء المصريين هم ثقيل.. هم التفكير فى مصائر البنين، هم الكدح اليائس فى إسعادهم، هم السعى المتطاحن إلى انتزاع مقعد لهم فى المدرسة، هم القتال المستحر فى تهيئة مكان لهم فى الحياة.. إن وطنك الآن سيوفر علينا كثيراً من الأعباء لأنه بلغ رشده وعرف وجهته واهتدى إلى الطريق القويم.. سوف يعاملك وطنك أنت ولداتك كما تعامل الأوطان الراقية فلذات أكبادها فيوفر لجسومكم الصحة، ولعقولكم العلم، ولكفاياتكم العمل، ولدنياكم الاطمئنان والدعة.

* * *

يا طول حنينى إلى ذلك اليوم الذى أراك فيه فى صفوف العاملين لخير هذا الوطن ، وما أسعدنى يوم تضيف إلى تراثه من كريم عملك شطراً ، أو تزيد فى سجل مجده سطراً . . ماأسعدنى يوم يشتد ساعدك فتعلى بناءه ، وينضج تفكيرك فترفع لواءه ، وتسمو مصريتك وإنسانيتك فيشرف بك وتشرف به .

أى بنى : مرحباً بمولدك . . وأهلا بمقدمك إبناً عزيزاً فى وطن عزيز ينزل من أعماق قلوبنا مكان الأبناء والآباء .

* * *



الحنان ... ذلك اللفظ العذب الذى يأسو الجراح هو الذى آثرنا أن نطلقه على ابنتنا الوليدة ليكون إيحاءً متصلا يهدى خطاها فى طريق الخير ، وهاتفا مهيباً يناشد ضميرها أن يهب البر ، ودعاء موصولا يستحث إنسانيتها ما ردد اسمها النداء .

فإلى حنان نتوجه الآن بهذه المناجاة احتفاء بمقدمها وتخليداً

ليوم عزيز حمـــــل إلينا مع نسمات أصيله « حنانا » .

حنان : إننا لم نختر لك هذا الاسم ليكون تميزاً لك فحسب كما جرت العادة فى الأسماء . بل إننا أردنا باسمك وهو صفة إنسانية كريمة بل لعله أكرم صفات الإنسان ، أن يكون لك طابعا يتوج جلاله أعمالك فتسمو ، ويترك أثره فى نفسك فتشف . ويسرى إلى قلبك فيرق ويحنو .

إن إسمك يا ابنتى كما قلت لك أكرم صفات الانسان لأنه جماع الصفات الطيبة فيه ، فالذى يحنو يمنح ولا يسلب . ويعطف ولا يقسو ، ويلين ولا يجفو ، ويسمح ولا يشتط . وحسب الانسان أن تتكيف شخصيته على هذا النمط الرفيع لتلتق القلوب على محبته وتجتمع العقول على إكباره . وإذا عشت بين الناس ياابنتى محبوبة محترمة فقد اطمأن قلبى .

حنان : إن بى رغبة طاغية فى التحدث إليك ولكنك لم يمض على مولدك إلا أيام ، فكيف أكلم من تشرق فى المهد صبية ؟ سأسجل حديثى على الورق لتقرئيه بمشيئة الله بعد سنين قليلة . وكم يطيب لى أن أسمع رأيك فيه . أما إذا صار لك قلم وكتبت بيدك ذلك الرأى فقد تمت نعمة الله علينا وهبطت علينا بظهور فنك من سمائه السعادة .

حنان : كنت قبيل مولدك أحس بفطرتى أن والدك كعادة الرجال دائماً يتمنى أن يكون الوليد صبياً . كان يروح ويغدو ويشترى ويعد لاستقباله . وكنت أسائله «وإذا كانت بنتا» فيبتسم ويتظاهر بأن الأمر سيان . ولكنى كنت أدرك الحقيقة ، وكان يخيل إلىّ أن حفاوته سوف تفتر إذا لم تتحقق أمنيته . ولكن صدقينى يا ابنتى أنك ما إن أهلت طلعتك الملائكية على دنيانا حتى أقبل عليك وجمعك بين يديه وتأملك فى شوق ثم أخذ يرسل على خدك المنور غمراً من القبل .

ورأيت عيناى هذا المنظر الخالد بين الأبوة والبنوة وسمعت نفسى الحديث الصامت الذى دار بينكما حين كان يتأملك ويتطلع إلى وجهك ، فسرى عنى الألم . وأدرت رأسى على وسادتى أطلب بعينى اللتين أطلت اللهفة منهما أن أراك بدورى فحملوك إلىّ ، وقربوك منى فوجهت قلبى إلى خالقك أشكره شكراً عميقاً على منحته التى تعدل عندى نعمة البصر والسمع مجتمعين .

حنان : لقد بدأت تملئين حياتى فنومك يحدد نومى ، ويقظتك تستنفد صحوى ، وبكاؤك يلهب غفلتى فأهرع إليك تاركة ما بين

يدى مهما كان ، وابتسامك يهبنى العزم والثقة ويشيع فى عالمى النور والأمل والغبطة . . وقد آخذ نفسى بالجد فما إن ترف ابتسامتك على وجهك البدرى حتى تستخفنى وأحس قلبى يثب من الفرح . . إنى حين أتأملك تعبث يداك وقدماك الصغيرتان بغطائك تغمرنى سعادة لا حد لها فكيف بى إذا سمعتك تناغين وتتكلمين وتمرحين .

حنان : قد تمر الساعات الطويلة وأنت نائمة فأشتاقك وأنت إلى جانبى ، وأنتظر يقظتك . ولكنك كثيراً ما تسترسلين فى نومك الهنىء فأدنى وجهى من وجهك وأظل أتأملك فى استغراق ورقة لم أعهدها فى نفسى من قبل لأنها من صنعك أنت، ومن وحى بنوتك لأمومتى .

وقد يحدث أن تلم بك فى نومك رجفة خفيفة فيهتز قلبى وأفزع إلى أمى ،أنا، أسألها السبب فتبتسم قائلة : دعيها تحلم . وقد تبتسمين فى نومك فأخلق لفرط فرحتى من ابتسامتك حديثاً وأمضى أصفه لجدتك وأبيك كيف ابتسمت كأنى لم أر طفلا يبتسم من قبل . . ولكن حبك الذى تفجرت ينابيعه فى قلبى جعل كل شىء تأتينه

جديداً فى عينى.. إنها الأمومة ياابنتى التى سموت بى أنت إلى عرشها..
إننى الآن أعظم سعادة بحب أمى لى لأنى عرفت بعد مولدك قلب الأم وحب الأم .

حنان . ما أسعدنى حين أرتب لك ملابسك ، وأنسق لك هدايا مولدك ، وأفرغ من هذا لأتفقد فراشك . وأظل هكذا فى شغل شاغل بك حتى يحل موعد رضاعك فأقبل بقلب هانئ لا تسع الدنيا فرحته أضمك إلى صدرى ، ثم أتأملك وأنت ترضعين وبودى لو أسكب لك نفسى مع اللبن .

حنان : لقد أثرت خيالى . . فكثيراً ما أسبق الأيام وأتخيلك فى عيد ميلادك الأول تتألقين كزهرة السوسن فى فستان أبيض يلتف نصفه الأسفل على جسمك الصغير على شكل المروحة ، وأتخيل كعكة العيد وقد غرست فى وسطها شمعة مضيئة وقد أحطناك بقلوبنا نلقنك فى ابتهاج كيف تطفئين الشمعة ، فتقلدين حركتنا بثغرك الجميل فى طرافة تضحك الضحك الذى ينبع من القلب . . من فيض السرور وزهو الفرح .

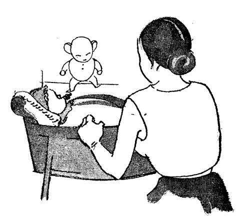
وتارة أتخيلك تدبين بقدميك الصغيرتين هنا وهناك فى أنحاء البيت السعيد بك لاهية لاغية . وكم حوارا نسجه خيالى بينى وبينك .

وكم انفعال يرتسم على وجهى مما يعكسه عالم الأحلام الذى أعيش فيه منذ مولدك .

حنان : إننا على أبواب فصل الشتاء وكم شتاء استقبلنا فى حياتنا معدين العدة لاتقاء برده ، ولكن شتاءنا هذا العام نحس دفأه قبل أن يحل لأن الزهرة التى تتضوع فى بيتنا قد أحالت الشتاء ربيعاً أدعو الله أن يكون موصولا .

حنان : إنى أسألك يا ابنتى بعد أن أوضحت لك كيف أطلقنا عليك هذا الاسم الجميل أن تهبى من قلبك الكثير للآخرين . أغدقى الحنان على الضعفاء والأقوياء ، تجتذبين القوى وتحيين الضعيف ، وأغدقيه على الأصدقاء والأعداء على السواء ، تكسبين العدو وتأسرين الصديق . امنحى الحنان من قلبك الكبير ولا تنتظرى الجزاء ، فإن فعل الخير فى ذاته يحمل جزاءه بما يضفيه على فاعله من السعادة وراحة الضمير ، ثم إن التجرد للمثل الأعلى بدون مقابل هو ارتفاع بالإنسانية إلى أوج رفيع يسمو على الجزاء بل لعله يترفع عليه .

حنان : استلهمى اسمك ثم سيرى على بركة الله .



هوه . . !

هوه ياحنانى ، هوه نامى ، هوه وخلى العيون المتكسرة من من الوسن تغفى فقد بدأت تحلم . . . دعيها تنعم بالأحلام . . .

هوه ياحنانى ، هوه نامى هوه . . . نامى وارينى منك وجها آخر لتتم لى رؤية الملك يقظان ونائما . . .

* * *

هوه... نامى على صدرى وبين يدى قبل أن يضمك المهد السعيد الذى يقوم على يمينى . . . استقبلى سواطع الأحلام فى حضن أمك وأتيحى لها أن تتطلع طويلا إلى وجهك البدرى ترف عليه أنفاسك الهادئة كما ترف نسمة وهنانة على سوسنة غافية فى هدأة السحر .

حنان . . . مهدك يناديك أو يناديني أن أسلمك إليه لترتاحى هل هو منى أحنى ؟ قلبى يأبى . . . قلبى الذى تريحين عليه رأسك الآن فيخفق لك ومعك، ويجن حبه إذا طاف بك فى نومك عارض من فزع ، أو مسك فى يقظتك طارئٌ من ألم يجيش له منك بكاء .

حنان . . . هوه . . . هوه . . . أيقظى ما تزالين ؟ أم أن هذه العين النجلاء تومض وتغمض كلما سكت لتنبهنى إلى واجبى المقدس ؟ . . . سمعا وطاعة . سأقول لك هوه . . هوه . . هوه . . هوه . . مادامت هذه الهدهدة وسيلتك إلى النوم الهانى .

هوه . . هوه . . هوه . . يبدو أنك استغرقت فى النوم فإن قطرات بيضاء صافية مثل حب اللؤلؤ تلمع فوق جبينك وتحدث عن الدفء الذى يغمرك . . من صدرى .

* * *

حنان .. اشتقت صحوك ، واشتقت منك اللغو والزياط ، واشتقت منك حتى الصخب والصراخ فاستيقظى ... استيقظى تدب فى بيتى الحركة ويعاوده النشاط المحبوب .. نشاط الحى الهادف الذى يحدوه للعمل أمل كريم .. ولست أعرف فى حياتى على كثرة ماطمحت فيها إلى أشياء ، وأملت فى أخر ، أملا أكرم وأحب من تنشئتك وتعهدك والتفانى فى هذا تفانيا يلذ له الفداء .

حنان .. هيا إلى مهدك ... نامى وليكن دثارك غطاء لجسمك كله حتى أطراف أصابع قدميك لآمن البرد على طفلتى الحبيبة .. ولكن من أكون أنا مهما حرصت واحترست ، ومايكون الغطاء وسواه فى جانب رعاية الله.. لتكلأك هى أولى وأوفى ضمانا..

فياعناية الله ... حفى بها من أجلى ... وانشرى عليها السلام
ويا عناية الله ... رفى عليها كقلبى ... وانشرى عليها السلام
ويا عناية الله ... اغمريها كحبى ... وانشرى عليها السلام
ويا عناية الله ... طوفى بها كروحى ... وانشرى عليها السلام

يا إلهى ! هل الأمومة بهذه الروعة يا إلهى ؟

ما كنت أدرى ..

ما كنت أدرى .



العيد الأول

صباح جميل والبيت كله قد استيقظ مع العصافير ، وكل من فيه يؤدى عملا ويهمرج فيه .. ويلحظ الجيران فى البيت الوديع حركة غير مألوفة ، ويتطلع فضولهم من النوافذ على استحياء ثم يتوارى حتى وافت ساعة الأصيل ... وانتثرت الورود فى أنحاء البيت كله وسرى عطرها فيه .. وصفت موائد

الشاى فى الشرفة الكبيرة . . وتهامس أهل الدور المحيطة بعيونهم . . إن حفلا هناك . . إنه عيد كبير . . هذا ماترجمته الهمسات . . همسات العيون وهمسات الشفاه .

وأخذ جرس البيت يؤدى عمله هو الآخر فيرن بين الفترة والفترة معلنا قدوم ضيف جديد من ضيوف العيد . . وما إن نخف لاستقباله وتحيته حتى ينادينا الجرس العامل إلى قادم صديق. وما زلنا هكذا حتى اكتمل عقد الأعزاء المدعوين.

وهنيهة من هنيهات الشوق التى تبدو للمنتظر طويلة وإن كانت فى حساب الزمن قصيرة عابرة حتى خرجت عليهم الصغيرة الحبيبة الجميلة صاحبة العيد .. إنها حنان.. حنان فى ثوبها القرمزى المخملى فى انعكاساته تحت الأضواء المسلطة عليها .. أضواء الثريات وأضواء الشموع ، وأضواء أقوى وأبهى ، أضواء العيون المتطلعة إليها ، والقلوب الحانية عليها ، والآمال المرجوة لها ، والأشواق المتعلقة بها .

إنها حنان فى ثوبها القرمزى الناعم خرجت من لفائفها كما

تخرج الوردة الحمراء من كمها لتشيع الفرح وتنشر العطر ، وتنفث السحر ، وتخلع الجمال أينما حلت . .

إنها حنان تلك التى تخطو على الأرض فى لمس هين لين رفيق رقيق . . وهذا الذى يتألق كصافى البلور هو وجهها ذو العينين النجلاوين . .

وأقبل عليها الجميع يقبلون منها الوجه المتألق ، والكفين البضتين وهى فى دهشة من أمرهم . . ثم يقدمون إليها هدايا عيدها ولعب عامها الأول فتنسرى عنها بعض الدهشة ، ويلعبون معها فتنشغل عنهم بها وتمضى فى عبثها الحلو ، ولهوها المعشوق ، وتمزجه بلغوها الناغم الذى يثير ضحك الآباء .. ويوقظ أبوة المنتظرين . .

ويتجه الجميع إلى مائدة الشاى لتطفىء شمعتها الأولى وتتقبل التهانى قبلات .. إنها لا تدرك بعد ، غير لغة القلب هذه .

وحملتك يا ابنتى لأدنيك من الشمعة المضيئة ، ولكنك أبيت أن تطفئيها فأطفأتها عنك ، إنك حنان صاغك ربى لتهبى النور لا لتطفئيه . .

تهبى النور روحى ، وتهبى النور بيتى ، وأ كبر أملى أن تهبى النور وطنك كله ، بل وأوطان الآخرين . كونى شمسا ياابنتى واسعة العطاء ساطعة الضياء غداقة وهابة فى غير منٍ أو محاباة ، تسلسل النور للكفور كالقصور سواء بسواء ، وهذا ياابنتى خلق العظيم.

حنان...هذا عام من عمرك الطويل المديد باذن الله ، ولكنه عامان بالنسبة إلينا ، فقد عشناه مرتين مرة معك ، والأخرى مع أنفسنا . كنا مهما شغلتنا الحياة ، وزحمنا العيش لايفوتنا منك صوت أو حركة أو نهضة أوابتسامة أوكلمة أو إشراقة أوعولة، كنا كالمفتونين نحكى ماتصنعين ، ونردد ماتقولين فى هناءة منقطعة النظير ، وننسى مسحَّرين دنيانا بمشاغلها وزحامها ، ونعيش فى دنياك الخاصة ، دنيا بريئة نقيه ملائكية فيها وشى وتفويف ، ولها نضارة وعليها رواء ، دنيا طاهرة لاتعرف الأطماع والأباطيل، دنيا صادقة على كثرة أوهامها لأنها أوهام الفطرة الاولى ، لا تلك التى فى دنيا الناس المليئة بالزيوف .

حنان : إن السماء فى عيدك الأول تفتح أبوابها على مصراعيه لتتلقى عن الأفواه الداعية لك ، والقلوب المصلية من أجلك،

الدعوات والتمنيات بعمر مديد سعيد . وفى الموكب الصاعد إلى بديع الحياة والحى تأخذ صلاتى طريقها إلى خالقى أن يجعل حياتك سلاما وابتساما ، وأن يهبك الرضا والطمأنينة فليس أثمن يا ابنتى فى هذه الدنيا من طمأنينة النفس ورضا القلب وسلام الروح .



دمعة..!

ابنتى ...

حديثى اليوم أكبر منك بكثير. ولكن لماذا أخص هذا الحديث..

إن كل مادار بيننا من قبل، من أحاديث، إنما كان نصفها للحقيقة ونصفها للخيال، الحقيقة أمثلها الآن لأنى أدركها وأكتب الأحاديث، والخيال صباك المنتظر الذى لايزيد اليوم عن طفولة لاغية فاغمة منطلقة

أقرب فى بساطتها النقية إلى طبيعة الزهرة فى الروض ، والعصفور فى المرج منها إلى طبيعة الانسان البالغ الذى علمته التجارب والدرس والتحصيل ألا يقنع بالظواهر بل يحلل ويدقق ويستقرىء ويستشف ، إذن فلأ فرغ صدرى ولأفضى إليك دون اعتبار للسن فان طفلتى حنان إن شاء الله ستصير حبيبتى حنان .

منذ أربعة أشهر كانت حياة جديدة تـكمن فى أحشائى ، ومنذ أيام بدأت أحس دبيبها فابتهجت بينى وبين نفسى ابتهاجا كنت أداريه حتى لا أتهم بالخفة وقد بلغت مبلغ النساء لاسيما بعد أمومتى لك . ولـكن ماذا تجدى المداراة مع إحساسى العارم بالنماء والتجدد . كنت كالشجرة الموعودة من الربيع بأنها ستزيد فيه غصنا زاكيا . كنت أحس انفساحا وسعة فى كل شىء ، سعة فى أملى ، وسعة فى عمرى ، وسعة فى اسمى ، وسعة فى أمومتى ، كل هذا كنت أحس به مع مافى بنوتك من إشباع وإمتاع فى هذه المشاعر جميعا .

وفى يوم ... ماذا ؟ إنها لحظة من لحظات الخطر المروعة ، هل أرويها لك ؟ لا ، مالك وللمآسى ، تسألين عن الحياة الجديدة التى حدثتك عنها منذ قليل ، حسبى أنت . أما تلك الحياة فقد كتب عليها الذبول وهى فى الـكم لم يتفتح عنها بعد ، وأما ذلك الأمل فقد

اندداح ، وأما تلك المشاعر الجياشة فقد انحسر موجها وارتد مقهورا . وخرجت من المستشفى أحمل ، لا شيء غير الفراغ والعدم . كنت عليلة شاحبة لا أملك إلا حماية والدك وبره وحنان جدتك

والدك الذى نسى مرضه الطارىء فى ذلك اليوم ، ونسى عمله وراحته واحتمل من أجلى مالا يحتمله بشر لينقذنى من الموت بأى ثمن. هل أنسى هذا ؟ هل أوفيه ؟ وجدتك التى كادت تذهب نفسها شعاعا من هول القلق والخوف واللهفة حين كانت حياتى خيطا واهيا بين اليأس والرجاء . هذان الاثنان يابنيتى هما كل مالى فى الدنيا وهما كل مالك أنت أيضا فابتهلى إلى الله معى أن يديم عليك وعلىّ نعمتهما .

هذان الاثنان يابنيتى كانا سندى فى خروجى من مستشفاى كما هما سندى فى الحياة . ولكنى كنت كسيرة القلب ، فى نفسى شجن ، وفى روحى ألم ، وفى خاطرى فقدان ، وفى نصيبى حرمان . كنت كالقائد الذى خرج من المعركة مفلول السلاح ، خافض الجناح ، مثخن الجراح بعد أن أبلى فكانت عاقبة أمره خسرا .

وأويت إلى بيتى ولزمت سريرى وتلفت حولى ... وهنا تذكرت مولدك، وما عانيته يومئذ ... ولكنى رأيتك فى لفائفك البيض

فانجاب عنى الكرب ، وأصبح ذكرى تزيد نعيمى بك ولا ترنقه . وعدت بك إلى بيتى عودا حميدا أحاطت به التهانى والتبريك وضجة الفرح وبهجة الغرس الجديد ، وبشرى الوليد وهناءة السعيد .

ولكنى هذه المرة ترى عينى الوجوه غير الوجوه ، والبيت غير البيت والكلام غير الكلام . قصارى مايخففون به عنى أن الذى فقدته إنما هو جنين كانت حياته لحياتى فداء . من إشفاقهم علىَّ وحبهم لى قالوا ماقالوا . ولكن الجنين الذى زعموه بضعة من نفسى ومن نفس أخرى حبيبة ، والجنين الذى زعموه، كان أملا وولدا وسندا لو قدر له أن يتم تمامه ويستوى فى حمله . والجنين الذى زعموه، إنما هو أخ لك كنت أتخيل طفولتك تحدو طفولته ، ورقتك تلطف قوته ، وأنوثتك تظهر رجولته . وحسبت نفسى جمعت الحسنيين وأنجبت النوعين ، فاذا بى أحلم .. وإذا بى أفتح عينى الشاردة على:

صيد حرمناه على إغراقنا في النزع والحرمان فى الاغراق

يا لله لقلوب الوالدات : كل هذه المرارة التى أتجرعها من جل وعد بالبنوة أو جنين على زعمهم ، فماذا تصنع أولئك التعيسات الثكالى اللائى امتلأت جعبتهن من الشمات والضمات والبسمات

والكلمات والذكر ؟ ماذا تصنع أمهات أولئك الذين راحوا فى ميعة العمر ، ونضارة الصبا بعد أن فنى العمر أو أجمله فى تعهدهم وتربيتهم ؟، إن جن الوالدان فغير ملومين ، وإن لم يفعلوا فأبطال لاتعدل بطولتهم شىء من تلك البطولات التى ينسبونها إلى السيف أو القلم .

* * *

حنان : عيشى وصحى فقد أصبحت حياتك ملتقى حياتين ، والأمل الباقى لاثنين فيك.. لها عزاء ، وفيك لها رجاء ، وفيك لها خير العوض .



كنت يا ابنتى (فتاة) عميقة
الحس بوطننا وبالفن . وكان
من حولى يتسمون فى حب
ويتهامسون . . إن الغد كفيل
بتهدئة هذه المشاعر المتأججة
المجنونة بالمعنويات . . غدا
يتسرب هذا الحب إلى الزوج
والولد . . . وجاء الغد بالزواج
والبنوة ، فإذا حبى لوطنى ثابت

ويزيد . وإذا شعورى به أعمق
وإذا همى به أكبر . . .

لقد توثقت صلتى به و بعدت
نظرتى إليه . . . لم يعد وطنى
لفترة محدودة هى عمرى
المكتوب . ولكنه وطنى بعد
هذا بكثير ، لأن عمرى بك
امتد ، وأصلى بك تفرع، وأملى
بك ترامى . . كان بالأمس
وطن أبى ووطنى ، ولكنه
اليوم وطن أبى ووطنى ووطن
ابنتى . . . إن مصر لى جيلا
بعد جيل .... فاسمعى عنى طرفا
من تاريخها كتبت بعضه كمقال
٢٦ يوليو . . وأوحيت أنت
بعضه كمولد الجمهورية والجلاء ،
وأذعت بعضه كذكرى الاحتلال
الذى اتجهت به إلى المرأة
المصرية . . .



ودنت ساعة الخلاص وكانت مصر بشعورها تحسها ، ولكن قلبها كان يهتز . كان يخفق فرحا بقرب إعلان مولد الفجر الجديد ، وكان يضطرب إشفاقا خشية أن يكون قد أسرف فى التفاؤل والأحلام . وعاشت مصر أربعة أيام ترقب وتتكهن القدر وتتطلع إلى السماء تدعوها فى صوت مختلج أن تسند وقفتها فى وجه

الظلم فلا ترتكس ، وأن تبارك هبتها فى وجه الطغيان فلا تنتكس ، وأن تصل حياتها الجديدة بعد البعث فلا تموت . وكان اليوم الرابع أطول يوم لأن مصر عاشته لحظة لحظة ، وكان أقصر يوم لأن مصر من هول ماعانت قبله ، وعظم مانالت فيه ، بدا لها كالحلم السعيد الموشى ، قصير الأمد بعيد التصديق .

لقد صبرت حتى شق صبرها ، واحتملت حتى ضاق ذرعها، وكابدت حتى وهى جلدها ، وتجلدت حتى رماها الجاهلون بطبيعتها ، الباخسون لمعدنها ، بالبلادة ، واتهموها بالغفلة ، ووصفوها بالجمود الذليل . ولكنها كانت تعرف أين تضرب ضربتها ومتى ، كانت تدبر لها بحكمة السنين ، ثم نفذتها بعزم الفراعين الجبابرة ، ومضت إلى غايتها فى استبسال المستميت. ثم استمدت ربها العون فأجاب، وفوقت سهمها فأصاب ، واستلهمت تاريخها فتبدد من جوها اليأس وأشرق فى أفقها الأمل ، وجاشت فى صدرها العزة ، وسرى فى كيانها الشعور بالقوة والكرامة .

فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ قالت مصر (لا) مدوية كالرعد ، نافذة كحكم القدر . وفى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٢ أصدرت مصر أمرها فطأطأ الطغيان رأسه ، وأعلنت مصر كلمتها نخفض الاستبداد

صوته . وفى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٢ فتحت مصر بابها فخرج الظلم إلى غير رجعة · ودهش العالم ، وابتسم القدر ، وسجل التاريخ ، وهتفت الوطنية .

فى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٢ خرج الظلم وانكمش أعوانه متضائلين بعد أن عاثوا الفساد وأشاعوا الفوضى ، وأرهقونا بالبؤس ، وحرمونا من الخير ، وأذلونا بالاضطهاد، وقتلونا بالعنت والكبت ، واعتصروا دماءنا ليريقوها فى كئوسهم خمرا ، وما حسبوا أن الله لهم بالمرصاد وأن وراء الخمر أمرا .

فى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٢ طردت مصر الظلم واكتفت بهذا فلم تنكل به كما نكل بفلذات أكبادها . لم تودع فى صدره الأثيم الرصاص الذى أودعه صدور بنيها فى فلسطين ليزداد ثراء . لقد قبض ثمن أرواحهم حين ابتاع لهم الأسلحة الفاسدة ليضاعف خزائنه ! ! كانت مصر جبارة فى غضبتها ، ولكنها كانت كريمة فى عفوها مع القدرة ، نبيلة فى صفحها مع غصة المرارة من الدم المسفوح . إن وطنى صانع المعجزات.. إن التاريخ القديم والحديث ليس فيه صفحة واحدة لشعب عفا عن طاغية استبد به واستهتر بكل القيم كما عفا شعب مصر .

لقد بكى قلبى مع الكثيرين من قومى عندما أعلن البشير خلاص مصر من ربقة البغى والطغيان ، ولكن دموعنا هذه المرة طفرت من الفرح بالنصر المبين وطالما سكبناها فى مصارع ضحاياها فما تحدرت من مآقينا حتى اختلطت فى بحر الدموع والعرق بلوعات الثكالى وزفرات اليتامى، وأنين المجهودين والحيارى ، ومن تقطعت أنفاسهم فى منتصف الطريق .

اشتدى أزمة تنفرجى..

نعم لولا تفاقم الخطب لما نفد الصبر ، ولولا اشتداد الكرب لما انفجر الصدر ، ولولا توالى لذعات الألم لما فاضت الكأس.

لقد أكرهنا على أن نقدم ما نزرع ليتخموا ونجوع ، واغتصبوا الضرائب التى ندفعها باسم مخصصات ومرتبات يكدسونها أكواما من النضار عاما بعد عام دون أن تنقص لأننا مكلفون مع هذا أن نتحمل تكاليف طعامهم ولباسهم ومركباتهم ونزهاتهم وأسفارهم وولائمهم وزينات أفراحهم، حتى إذا ضاقوا ذرعا بالمال كما نضيق ذرعا بالعدم بعثروه فى سفاهة على الموائد الخضراء وفى الليالى الحمراء حتى إذا طلع النهار اتخذوا سمت الصالحين فغشوا المساجد ،

وأداروا حبات المسبحة . وبلغت السخرية مداها حين زعموا ، ويالهول مازعموا ازعموا اتصال نسبهم بنبي المسلمين !

ويرى الشعب هذا ويسمع به وينتظر ويتحرق ولكن البغاة الذين أغراهم صبره وغرهم حلمه ، أضافوا إلى صفحاتهم السود صحائف من الغيلة وانتهاك الأعراض، والعبث بدستور البلاد وقوانينها . فخرج الاحتمال عن طاقة الإباء ، وكبر الجرم حتى ضج به الحلم ، وطاح معه الصبر فكان الانفجار .

لقد نسينا ما فدحنا به إسماعيل من ديون ، وما نكبنا به توفيق من ويلات الاستعمار ، واستقبلنا منذ ستة عشر عاما الطاغية الطريد كما يستقبل الميامين الأبطال ، وأملنا فيه خيرا وأحببناه حبا دنا من العبادة وحففناه بقلوبنا ، ولكن تركيته غلبت عليه ، فسامنا الخسف كأسلاف له من قبل ، وبغى واستكبر ومادرى أن الله أكبر وأن على الباغي تدور الدوائر .

إن يوم ٢٦ يوليه أجل أعيادنا خطرا وأعمقها أثرا ، فيه ولدت مصر الجديدة ، وفيه رفع الجيش رأس مصر المجيدة ، وفيه صح الوعي من مصر الرشيدة . وفيه دمدم ثوارنا أكبر حصون البغي ليبنوا على أنقاضه دولتنا من جديد .

إن أرواح الأبرار من أسلافنا تطوف بنا مرفرفة ، ففى أرضنا فرحة وفى سمائنا تبريك .

إننا سنجعل من يوم ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٢ طلائع موكب الحياة والنور ، سنجعل من هبتنا فيه بداية يقظة موصولة تصحح على هديها أوضاعنا ، وتستقيم على ضوئها أمورنا ، فلا نضل بعد اليوم وقد وضحت معالم الطريق .

إننا سنجعل من ذكرى ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٢ درساً بليغا فى العزة القومية نلقنه صغارنا حتى نجنبهم التجربة القاسية التى مررنا بها فما سلمنا منها إلا بمعجزة كبيرة

سنلقنهم أنه فى يوم ٢٦ يوليه أمر المصريون الفلاحون السادة الأتراك أن ينزلوا عن عرش لايستحقونه فأذعنوا صاغرين . ثم أمروهم أن يغادروا مصر فورا لاتشيعهم السلامة بل قذفت بكبيرهم إلى البحر لعنات شعب ممرور .

سنجعل من ذكرى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ نشيدا قوميا يحفظه عنا أبناؤنا ليعرفوا حقهم فلا يفرطوا فيه ، ويعتزوا بوطنهم فلا ييأسوا منه مهما ران عليه الظلام والكمد، فهاهو النور قد انبثق

دفعة واحده ، وعلى غير انتظار من جوف ليل بهيم عابس حسب معه الكثيرون أن الصبح ضل طريقه ، فاذا به غامر الضياء مائس النور .

سلام على مصر بين أوطان العالمين .

وسلام على شعب مصر بين الخالدين .

وسلام على جيش مصر بين الغر الميامين .



من مثل هذا المكان ناجيتك جنيناً لم تبد للدنيا بعد، طلعته .
وكان عنوان حديثي الأول إليك « إلى ولدى » ومما دار بيني وبينك
فى أول حديث قولى لك (. . . إن كل الذى بينى وبينك الآن
سريان فى الحشا يخفق له قلبى ، وتضيء له روحى ، ويكبر معه فى
الحياة أملى ، ويلتهب به شوقى إليك . . . ولكنى وإن لم تكتحل

عيناى برؤيتك بعد دائمة التفكير فيك . ولا اكتمك أنى كنت فى شهورك الأولى اتمنى لو تأخر مجيئك لازهداً فى نعمة وجودك ، ولكن اشفاقا عليك من دنيانا ، وضنا بك على المحن التى كان يقاسيها وطنك وقومك . .

ولكنى اليوم أدعو الله فى صلاتى أن يتم علىّ نعمتك ، وابتهل إليه أن يرعى مولدك ، ويكتب لك الحياة بل العمر الطويل لأن الظلام انجاب ، والنور انساب ، واليأس تبدد ، والأمل أشرق ، ووطنك تحول من النقيض إلى النقيض فأصبحت الحياة فيه سلاما واستحالت دموعه الغزار ابتساما . .)

وها هو ذا ميلادك قد اقترن من يمن طالعك بمولد الجمهورية وكأنى رزقت بتوأمتين ابنتى (حنان) وبنت مصر « الجمهورية » ..

يهنيك يا ابنتى أن لك توأما اسمها «جمهورية مصر» وأختك هذه عزيزة علينا مثلك سواء بسواء . سوف تدرجان معاً وسوف تتفتح عنكما الحياة معاً — حياة باسمة ندية من خير هذا الوادى الخصيب ، روية من رحيق النيل الحبيب ، رفافة بحضارة من صنع عقولنا ، حالية بآثار وثبة من عزم جهودنا ، عزيزة بحريه روبناها

بدمائنا ودموعنا بعد صبرنا — حياة موفورة الكرامة فى وطن كريم له العزة بين الأوطان .

لقد استكملت بمولدك شخصيتى فى بيتى كما استكملت مصر بمولد الجمهورية شخصيتها فى العالمين . . والأمومة يا ابنتى تهب السعيد بها الكثير . . فالأم أصل الأسرة عندها يلتقى أفرادها جميعاً : الصغار ينشدون عندها الدفء والحنان والرعاية والرضا ، والكبار يلتمسون لديها البر والرأى والمشورة . . . والأمومة يا ابنتى تقليد للامر وإيذان بالمسئولية وكلاهما عبء ثقيل ولكنه جميل . . لأنه اعتراف بالشخصية ، وتأكيد للذاتية ، وثقة فى القدرة ، وإيمان بالكفاية . . وهل يناط الأمر إلا بصاحبه ؟ وهل تُحمل المسئولية إلا أهلا لها ، جديراً بها ، قادراً عليها ؟ ويقينى أن شعور مصر بعد مولد الجمهورية إنما هو شعور المسئول الواثق بنفسه ، المالك لأمره ، المتصرف فى ملكه لأنه بلغ الرشاد وعرف السداد .

طوبى لك يا ابنتى فعندما تبلغين رشدك ستنتخبين حاكمك بنفسك ، برأيك . . بإرادتك . . وهو شأو لم تبلغه أمك بعد ، بل لم يبلغه أبوك والرجال . . لأننا عشنا فى ظل الملكية صاحبة

الحق المقدس الموروث كما أرادوا ، وأُنت تشبين فى كنف الجمهورية التى تؤمن بأن أمرنا شورى بيننا كما أراد الله .

هل تصدقين أنه إذا أساء رئيس الجمهورية استطاعت « لا » منك أن تنحيه وتحل غيره مكانه ؟ كما أن لفظة « نعم » منك قد يتوقف عليها ترجيح إحدى كفتين .. والنجاح للمجدود الذى تمنحينه صوتك ليرقى عليه إلى مقام الرئاسة وكأنه دعوة مؤمنة تفتح لنائلها أبواب السماء ؟

هذه يا ابنتى هى أبرز سمات الجمهورية ، الاعتراف بشخصية الفرد ، والاعتراف بشخصية الجماعة . وهذا يا ابنتى هو سر ابتهاجنا بالجمهورية لأنها منا وبنا ولنا .

سوف لا يتقدم عليك أحد كائنا من كان بمولده لأن قوام الجمهورية السبق للأكفأ والأفضل . . فلتعلمى أنك أنت الأميرة وأنت النبيلة لأنك أنت المصرية . . المصرية لحماً ودماً ، وفكراً وهوى . . أنت المصرية جسما وروحاً . . وكم بين الأصيل والدخيل . .

من يدرى لعلك فى غد تصرفين بعضا من أمور الجمهورية ، أو تكونين زوجة لرئيس الجمهورية وما بالغرور هذا . . إنها

أحلام الأمومة فى كل بيت مصرى — أليس الأمر فينا ، وإلينا صارت مقاليده؟ فلتترام الآمال إلى أقصى غاياتها فما تحقيقها بعزيز..

لقد ارتفعت يا ابنتى أمانى الأمهات والآباء المصريين وجاوزت لقمة العيش إلى آفاق بعيدة حيث تهفو بجناحين . . إن تدبير المأكل والملبس لك ولرفاقك لم يعد شغلنا الشاغل كما كنا فان حاضر الجمهورية الواعد نضا عنا هذه المشاغل — لم تعد تصدق علينا كلمة عمرو بن العاص الذى رووا عنه أنه اختبر حالنا بعد الفتح فكتب إلى إمير العادلين عمر بن الخطاب يصف له مصر ، الجنة التى نعيش فيها ويصفنا بقوله« لغيرهم ما سعوا من كدهم » . لشد ما كانت تشجينى هذه العبارة التى كانت تصدق علينا قبل مولدك ومولد الجمهورية . ولكننا اليوم قد تقرر حقنا فى وطننا وانتزعت أرضنا من غيرنا الذين عناهم عمرو. سعينا اليوم لأنفسنا، وزرعنا لنا وحدنا جناه،فان فاتنا الجنى فلتنعموا به أنتم فلذات أكبادنا ـ أنتم وحدكم ـ وحسبنا هذا سعادة وحافزاً على العمل والكفاح . مصر : هذه ابنتى وهذه الجمهورية ابنتك وكلاهما لك،فباركى مولدهما وتعهدى نشأتهما ، تصدق الأمانى فيزكو الغراس ويمرع ، ويؤتى الثمر ويطيب .



إليك ياسيدتى أوجه الحديث لنتذاكر معا — وما نحن بغافلين — أنه فى مثل هذا اليوم منذ نيف وسبعين عاما احتلت قوى الغصب والاستعمار مصر فأحالت جنتها جحيما ، وصفوها كدرا ، وسلمها حربا ، وهناءها كربا ، كشأن الاستعمار فى كل بلد يدنسه عاره ، ويرهقه إثمه . ولست أسوق الحديث عن هذه

الذكرى البغيضة إلى كل نفس مصرية لنأسى ، فما أقال الأسى يوما عثارا ، ولا شفى جرحاً . ولكننى أتحدث إليك لنقسم على الخلاص ، ونتعاهد على العمل له .

والخلاص ياسيدتى من ويل الاستعمار يقع عبؤه الأكبر عليك . إن القادة والجنود والمكافحين فى كل مكان ، أبناء لك وإخوة وآباء وأزواج . فلتدفعهم عزيمتك إلى الأمام .. ولتلهبهم روحك، يتضاعف جلدهم على المقاومة ، ويتعزى صبرهم على النضال.

زجى بهم إلى الميدان وإن بكت الأمومة فيك فاخفى دموعها لتهتف على لسانك الوطنية . هذا واجبك حيال الرعيل الأول .

أما الرعيل الثانى وأعنى فلذاتك الصغار ، فإن دين الوطن فى عنقك يقتضيك أن تقصى على مسامعهم ، وتنقشى فى عقولهم أن وطنهم قد استباح الاستعمار البريطانى حماه فى مثل هذا اليوم من سنة ١٨٨٢ ، وأذل أهله ، ووضع فى أيديهم الأغلال ، وحجر على عقولهم وطاقاتهم وكفاياتهم ليعوقهم عن ركب الحضارة ، ويضلهم عن طريق العلم ، ليتخذ من الجهل الذى فرضه عليهم

ذريعة لبقائه ، ومن التأخر الذى ألصقه بهم مبررا لوجوده . فاذا قام فيهم وطنى غيور ، أو مؤمن بحق قومه فى الحياة الكريمة الناهضة ، كتب عليه التشريد والنفى والحرمان .

قصى عليهم مافعله الاستعمار البريطانى بشهيد الوطنية محمد فريد . اقرئى لهم صفحات من حياته فى المنفى كيف ذاق الجوع والهوان والحرمان رب النعمة والثراء . قصى عليهم مافعله الاستعمار البريطانى بمصطفى كامل ومن ترسم خطاه .

علمى أطفالك ياسيدتى أن الصناعة مجد باذخ حرمنا منه الاستعمار البريطانى الذى أوهم فريقا غير قليل منا ، أن بلادنا زراعية لنزرع له ونجنى الخير دوننا يداه . لنزرع القطن لمصانعه ثم يجعل من بلدنا بعد نسجه ، سوقا يضاعف فيه الثمن أضعافا كما يشتهى جشعه دون حساب ...

علميهم كم من الدسائس نسجها لنا مما تفتقت عنها عبقريته صاحبة المبدأ المعروف فى دنيا الناب والمخلب . (فرق تسد) . علميهم كم فرق بيننا ، وكم بث عيونه بين صفوفنا تنشر البغضاء واشاعات السوء ، وتضرب بعضنا ببعض حتى إذا عكر الماء سهل عليه الصيد فيه .

كم أوغر الصدور وزرع الحزازات باسم الدين ، ليرمينا أمام العالم بالتعصب ، وليضع شرطا جديدا فى وثيقة اغتصابه (حماية الأقليات)... وما احتاجت الأقليات يوما لحمايته فى مصر السمحة الكريمة التى تؤمن أن الدين للديان ، والوطن للجميع ...

على أطفالك ياسيدتى أن الوجوه الكالحة التى ترابض فى القنال قد كلفتنا من الدماء والدموع والعرق فى سبعين عاما مايشق به صبر الحليم ولكننا لم نخضع ، ولكننا لم نخنع ، ولكننا لم نستسلم بل مضينا عبر السنين ننغص اقامتهم ، ونهدد أمنهم فما استراحوا ولا أراحوا... وما زلنالهم متربصين متحفزين . . . وإن ربك لبالمرصاد...

عليهم ياسيدتى أن منا أبطالا نصب لهم الاستعمار البريطانى المشانق فى دنشواى ، وهو كما يدعى ، القيم على الحضارة ، وهو كما يزعم ، الممتاز فى المدنية وهو كما يتظاهر ، المتسامى فى الإنسانية ! نصب لمصريين المشانق واستل أرواحهم كأرزاقهم فى وحشية منقطعة النظير على مرأى ومسمع من ذويهم الذين فرض — امعانا فى إذلالهم وتعذيبهم — أن يحضروا المشهد المروع ! وكأنه حسبهم مثله يتسلون بسفك الدماء ..

عليهم ياسيدتى تاريخ الاستعمار البريطانى فى مصر وتاريخنا معه... وإياك أن تنسى تلقيهم أننا ثرنا فى عزة الأبى على العسف والخسف مرات . . . ثرنا سنة ١٩١٩ ونحن العزل من السلاح على قوى الغاصب الغشوم لاتثنينا فوهات مدافعه التى نصبها فى شوارعنا ومساجدنا وأصلانا فيها النار والحمم ... لقنيهم أننا غضبنا غضبة رجل واحد وقدأججنا نارنا ، وسعر مصريتنا ، أسره للشيوخ منا واعتداؤه على الشباب . فأجبرته غضبتنا المدوية أن (يحترم رأينا فى الشيخوخة الأسيرة ، وعزمنا فى الشبيبة الثائرة) . . .

وتوالت السنون بعد سنة ١٩١٩ وفى كل منها له صرعى أبرياء ، فى كل منها له ضحايا شهداء ...

لست ياسيدتى أقل من نساء العالمين . . . إن فى تاريخ المرأة صفحات تخار فى مجال الوطنية ... ولأضرب لك مثلا بالأعرابيات . وهن قطعاً لم يبلغن فى الزمن القديم شأوك اليوم فى العلم والمدنية . . . هؤلاء الأعرابيات ، تقدم من إحداهن ولدها والمعركة دائرة ، فى يده رمح وهو يقول : قصير يا أماه .. فصاحت به غاضبة وهى تقول : تقدم ليطول ..

إنى أعرف بفطرتى أنى أكلفك من الأمر عســـيراً . . .
ولكنك تعلمين أن كل نفيس غالى الثمن . وهل أنفس فى هذه الدنيا
من الكرامة ؟ وأعز من الحرية ؟ إذن لنعش كرماء فى وطننا ،
أحراراً فى ديارنا ، ولا كرامة ولا حرية وعلى ضفاف النيل
دخيل .



عودتك أن أحدثك فى الأحداث الجلى فأفضيت إليك بخواطرى إذ بزغ الفجر الجديد مع قيام الثورة ، وحدثتك عن مشاعرى يوم أعلنت مصر الجمهورية . وفى ٢٧ يوليه أحسست بنفسى حاجة دافعة إلى الحديث إليك . . . إلى دنياى . . .

إن الأيام يا ابنتى كالأفراد تتفاوت فى المظهر والخطر والأثر.. على تشابه فى الصفات العامة للجنس والنوع . . . فيوم ٢٧ يوليه ليس فيه من سمات الأيام إلا أن أوله ليل وآخره فجر ، غير أن ليله طويل طويل ، مرير مرير . أو تصدقين أنه يبلغ اثنين وسبعين عاما ؟ وهو على طوله مظلم موحش بارد مملوء بتهاويل الشر وأشباح الظلام . ولكن فجره أيضاً يحمد عنده السرى... فجر واعد بالنور والخير والحياة تحدو ركاب الوطن العائد إلى أهله ، وتحف موكب الحق الآيب إلى صاحبه بعد رهق الانتظار وعنت المراوغة ومرارة الصراع . . .

إن يوم ٢٧ يوليه سواء أمن المتفائلون أو عارض المتشائمون ، إنما هو بلا مراء خط كبير عريض يفصل بين عهدين ، وبين نفسيتين ، وبين تفكيرين . . . وأخيراً بين جيلين . . .

إنى يا ابنتى أحس هـذا اليوم إحساسا مضاعفا ، وأعيشه عيشاً مضاعفاً وأحسب أن قومى كذلك...أعيشه لنفسى وأعيشه لأجدادنا الذين سمعوا بغتة قصف المدافع تضرب الاسكندرية ، ورأوا البوارج تحاصر الاسكندرية ، وشهدوا المواقع تنتزع منهم أرض مصر شبراً شبراً مخضبة بدمائهم مثقلة بضحاياهم ، موقرة

بصرعاهم . أعيشه لأولئك الذين شهدوا احتلال القاهرة عاصمتنا الكبرى...وأعيشه لآبائنا الذين تجرعوا صاب الاحتلال وناضلوا عذابه فى دنشواى وثورة سنة ١٩١٩ والحربين العالميتين . ثم شاء القدر على كره منهم أن يغيبوا فى هذا اليوم فلا يشهدوا النتيجة السعيدة للنضال والجلاد . . . وأعيشه للشباب من رفاق عمرى وزملاء دراستى الذين حاربوا فى القنال،وفتشوا فى القنال،واستثيرت كرامتهم وكرامتنا فى القنال.وأعيشه لك حتى تشبي، بل لأحفادنا أيضاً فى قابل من العمر ، ولأجيالنا المقبلة فى قادم من الأعوام وإلى أبد الآبدين . . .

إن الأيام والحوادث التى تصنع التاريخ إنما هى ملك الوطن كله . . . فالوطن ياصغيرتى ماض وحاضر ومستقبل. . .

إن جيلنا مطمئن إلى مستقبلكم ، أنت وأخواتك فى العمر . إن جيلكم أسعد بإذن الله من جيلنا . . . سوف لايضيع وقته ولايتشتت جهده ولاينحصر تفكيره،ولاتتبدد قواه ، ولا تتعطل مقدراته وإمكانياته ، ولاتهدر طاقاته من الإشتغال بالمحتل والكلام عنه ، وإعلان بغيه والثورة عليه والهتاف ضده والصراع معه . .

ستتحول هذه الطاقات إلى الإنتاج . . . إلى الإثمار . . . إلى البناء وهو كسب لا بالهين ولا بالصغير الشأن .

ولكن لاتحسبي أن طريقكم منضر بالزهر وإن كنت أشتهى ذلك، فان أمامكم يا ابنتى مهاما كبيرة خطيرة.. أن ترعوا الأمانة وتدعموا الأساس ، وتنهضوا بالبناء وتعلوا به طبقة بعد طبقة .

أمامكم أن تتغلبوا على رواسب القرون والاحتلال والاذلال فلا ينفس أحدكم على أخيه نجاحا فيعزوه إلى غير أسبابه ، ولا يسجد أحدكم لغير الله ، ولا يقلب واحدكم الحقائق مرضاة لحاكم، أو مرقاة إلى حكم . . . عليكم ألا يبيع أحدكم صوته لغير كفء ، ولا يمنح ثقته لغير جدير. غالوا بوطنكم فتملوه فى أعمالكم وسلوككم تصح منكم العزمات وتخلص النيات ... صفوا النفس المصرية من أكدارها الدخيلة ، وطهروها من شوائبها المدسوسة عليها ، فليس وراءكم غاصب يدبر بليل ، ولا خلفكم مغرض يعكر ليصيد ، ويفرق ليسود . . .

* * *

أى بنيتى

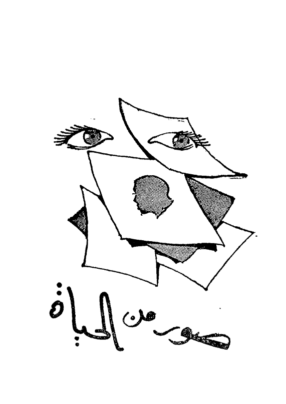
إنى أسجل لك الأحداث لأنى لا أريد أن أخلى بين المؤرخين

وبينك ، فإني أعرف من تجربتي ومما تعلمته فى المدارس والمعاهد أن المؤرخ قد تدفعه دوافع شتى ، وقد تحدوه عوامل خفية . وقد تستبد به أهواء ومصالح واعتبارات كثيرة ، فتشوب التاريخ تزيدات وتفسيرات وتوجيهات معينة . ولكن أمك لا تخدعك، ولا تضلك ، ولا توحى إليك غير صحيح ، فإن الرائد لا يكذب أهله. وأنت نفسى، بل أعز على من نفسى. فاسمعي عنى الحديث وتدبريه إلى جانب ما يلقى إليك. والرأى بعد هذا لك ، فإنى لا أبغى أن تقبلى شيئاً بدون تمحيص أو قبل إقتناع مهما كان مصدره ، سواء جاءك هذا الشيء من الغريب أو من أمك نفسها . . .

* * *

وبعد ، أمن محاسن الصدف ياصغيرتى أن اقترن مولدك بمولد الثورة ، واتسقت نشأتك مع نشأتها فإذا أنت تدرجين وإذا هى تتسع خطاها وتتوالى أمورها . . أهو زهو الأمومة الذى يقرن عندى أيامك بأيامها ، أم هو إيمانى بوطنى يشبه لى ٠٠٠ إنى أحس أن حبك وحب مصر يتفجران فى قلبى من نبعين متجاورين ، على سواء فى الصفاء والولاء لك ولمصر ٠٠٠ أهو زهو الأمومة ، أم إيمان الوطنية ٠٠٠ أيهما الذى يوحى الىَّ ؟




صور من الحياة

إن الحياة تنتظرك في شوق كما أن نموك الزاكي يعدني بأنك ستخرجين إليها بإذن الله . عما قريب .. ومن واجبي كأم أن أبصرك بالطريق حتى لا تحجب الحقيقة عنك زيوف. لقد رسمت لك صورة قريبة للزوجة المثالية والأم المثالية كما أحبك أن تكونيها. وأوصيتك بالفلاحة المصرية والجامعية والعاملة المصرية كنماذج حية لمواطنات جـديرات بحبك وإعزازك وتقديرك أيضاً . .

وبعد الجانب المشرق عرفتك بالتافهات لتحذريهن .

ولـكن هذا كله لا يعدو أن يكون ضوءا ينير لك الطريق دون أن يعفيك من المشاهدة والملاحظة والتقويم والاختبار .

حداك التوفيق . .



الأم المثالية

أنا أتحدث يا ابنتى إلى شبابك فى المستقبل القريب بإذن الله . . . لقد سطرت الصفحات الأولى لطفلتى حنان ولكنى هنا أكتب لحبيبتى حنان . أكتب لصباك الحالم بالأمومة .

غدا يا صغيرتى ستصيرين بمشيئة الله أُما كما جرت سنة الحياة فتعالى قبل أن تعتلى العرش العظيم أحدثك عن مهامه الخطيرة .

إن الأمومة ياابنتى ليست مجرد حمل ووضع ورضاع ، لأن هذا تتساوى فيه الأنثى من كل نوع. وهى عملية دنيا فائدتها للنوع أكثر منها للفرد، ولكن الأمومة فى جوهرها يا ابنتى بناء وإنشاء وغرس ، فاذا سمق البناء، وأعجب الإنشاء، وازدهر الغراس، انتصرت الأمومة فى المرأة واحتفلت بيوم عيدها.

الأمومة يا ابنتى طبيعة ووظيفة وفن. فهى فى أبسط مظاهرها وفجر ظهورها، طبيعة، هيأ الله لها كيان المرأة. ثم تتدرج فتصير وظيفة مهمتها التغذية والتكوين. فاذا سمت وارتقت أصبحت فناً لا يحذقه إلا الموهوبات فيه.

وفن الأمومة كفن الصياغة فى الأدب. له أسرار ولفتات ولمحات ولمسات هنا وهناك.. إن الأمومة يا صغيرتى أسلوب أيضاً يتفاوت بين الأمهات فعند أم يعذب ويروق، وعند أم يمتع ويشوق، وعند أم يرق ويصفو، وعند أم يحلو ويسمو، وعند أم يجزل ويخصب .... وعند أم .... يسف ويختل .... أو يضعف ويعتل فيطنب ولا إشباع، ويتكثر ولا إمتاع ويتهلهل وقد شاعت الركاكة فيه.

وفن الأمومة يا ابنتى كفن التلوين عندالرسام . وهو يتفاوت كالألوان بين الأمهات أيضاً . فلون صارخ يصخب ، ولون فاقع ينفر ، ولون هادىء يريح ، ولون حالم يوحى ، ولون باسم يسر ، ولون ناعس يحلق بالخيال ، ولون هامس يلهم الشعر . . . . لون فيه أسرار ، ولون له أطياف ، ولون له أضواء وظلال ، ولون يبعث الانسجام ، ولون يشيع السلام . . . وهكذا الأمهات . . . ألوان . . . ألوان يا ابنتى .

وفن الأمومة يا حبيبتى كفن الخلق عند المثال فواحد . يشكل أجساما بلاروح ، وآخر يصنع تمثالا ينقصه التعبير ، وثالث يشكل أصناماً ينكرها الفن الصحيح ... وفنان يحرك جامدالصخر ، وينطق صامت الحجر ، فاذا الجسم لا تنقصه أمارة من أمارات الحياة . فالعيون تسر إليك ، والشفاه توسوس لك ، والوجه يتودد إليك ، والصدر يوهمك أنه تفتح لك لتودعه أسرارك ، والتمثال بروحه الخفية يفضى إليك بسر صانعه ويحدثك حديثه فإذا بنفسه أمامك كتاب مفتوح ، وإذا به أدنى إليك من صديق .

وفن الأمومة يا ابنتى موسيقى ذات ألحان . . . فلحن يهز ، ولحن يقز ، ولحن يمل بالتكرار ولا معنى ، ولحن نشاز بلا هدف .

ثم لحن يحمس ، ولحن يحفز ، ولحن يصور ، ولحن يلهم ، ولحن يخلد ، ولحن يسرى إليك ، ولحن يحلق بك ، ولحن يبكيك ، ولحن يهنيك ، ولحن يستغرقك ساعتك ، ولحن تعيش فيه أياماً وأياماً و . . . لحن يهذب ، ولحن يرقق ، ولحن يعلم الجمال ، ولحن يفسح الخيال . . . وألحان وألحان .

والأمومة يا ابنتى صناعة أيضاً فهى التى تصنع الرجال على إرادتها كما تهوى وتختار .. والتاريخ إذا أقبلت عليه يحدثك حديثاً لا ينفد عمن صنعتهم أمهاتهم قبل أن يصنعوه .. وكم من عظيم صنعه أبواه ولو لم يكونا من النابهين . .

والأمومة يا ابنتى إنتاج لا استهلاك . حقا أنها مزيج من من الأنانية والإيثار ، الأنانية من سلطان غريزة التملك ، والإيثار من غلبة العاطفة وهو اللون الأغلب . فهى كثيراً ما تعطى وليست كأولئك الذين يأخذون ولا يعطون . وأروع ما يتجلى إيثارها فى رغبتها الحارة فى ارتفاع أولادها عليها . ويتضاءل حب الانسان فيها لنفسه ، فتتمنى مخلصة أن يطول فرعها على الأصل الذى هو . . هى نفسها . . .

إنها الأمومة كشجر الليمون الذى يحمل فى آن واحد الورق والزهر والثمر .

وهى بهذا منبع للثروة يزيد على الأيام .

الأمومة يا ابنتى حنان غامر لا يتخلى ولا ينقص على الكبر، بل لعله يعمق ويزيد من مغالاة . . . وعلى قدر هذا الحنان بنوره وإلهامه وإحيائه تكون قدسية الأم. فاغدقى الحنان يا ابنتى الذى جعلناه لك إسما .. أغدقيه أُماً، على بنيك ما امتدت بك وبهم الحياة. فان الأم إذا قست أو ضنت زلزلت القيم فى نفوس أبنائها ، إذ يرون الشر يأتى من حيث قدر للخير أن ينبع ويتحدر ويفيض .. وإذا اهتزت القيم تزلزل معها عرشها فلا تعود أما بالمعنى الأسمى. ولا يغنى حينئذ عنها شيئاً ما يتبقى لها من صفات الأمومة ، إذ الولادة والرضاع كما حدثتك صفة مشتركة بين الإناث من كل نوع .

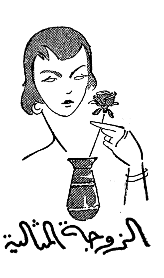
احفظى عنى يا ابنتى جيدا هذا الكلام وكونى منارة هادية لبنيك، يهفو الغائب إلى مرفئها الرحيم ويجن العائد، من فرح، بنورها الحبيب، ويسترشد الضال منها بالشعاع ،ويلوذ الخائف من الظلام بها إذا احلولك الليل.

ليكن فى تقديرك دائما يا ابنتى أن الأمومة الجليلة هالة للبنوة تضيء حتى بعد غياب مصدرها. فالبنت خاصة، تنسب إلى أمها. وإذا كانت الأمومة لا تحمل معناها لحقت لعنتها أيضاً البنوة وأزرت بها.

قد لا يكون وراء العظيم أمومة خالقة وأبوة صالحة. فكم يتامى استعاضوا بالخلود عما حرموه، وكم مضيعين رفعوا المشاعل لذوى الآباء... قد لا يكون وراء العظيم أمومة خالقة وأبوة صالحة - حقاً هذا، ولكن المجرم حتما وليد أبوة فاشلة أو أمومة آثمة.

أعرفت يا صغيرتى الأثر العميق الذى للأم فى حياة البنين؟ إنك وافرحتى تقرئين الآن فارفعى فى يدك كتاب أديبنا العظيم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى.. افتحى الصفحة ١٠٢ من كتاب (قبض الريح) واقرئى لأسمع وصف الكاتب الذكى للأمومة، فإنه من أروع ما قرأت، وبعض واجبى أن أهدى إلى عقلك هذا الشعاع.

بوركت لى بنتا، وبوركت لوطنك أما، وبورك لك فيمن تنجبين.



الزوجة المثالية

لقد تفتح عنك الكم الآن، زهرة الربيع. وغداً يضوع منك الشذى فى بيت آخر، بيت يحمل اسمك وذوقك وطابعك. وقبل أن تصيرى زوجة ياعروسى الجميلة، تعالى أحدثك عن الزوجة التى أريدك أن تكونيها .

تعالى أحدثك عن الزوجة المثالية كما يعرفها عصرنا الحديث.

حقاً إن الزواج قديم جرت عليه سنة الحياة منذ الأزل ، ولكن الجديد فيه معناه ، لأنه يتغير بتغير العصور ، وباختلاف البيئات والثقافات.

فالزوجة اليوم ارتفع معناها عن المتعة والأنوثة والزينة ، حتى غدت تشغل مكان الصديق والسمير والشريك والرفيق .

الزوجة المثالية فى مفهوم العصر الذى نعيش فيه نبع حنان تروى عذوبته ظمأ القلوب والأرواح . . . فإذا اشتدت الأيام ، كانت الساعد الذى يتكأ عليه ، والصدر الذى يغيب الوجه فيه ·

إن عطف الزوج يا ابنتى فى الأحداث خير بلسم يشفى الجراح .

وإذ تقبل الأيام، تنهض الزوجة وتعمر وتنضر وتبنى وترفع وتبعث الحياة فى كل خامد ، وتشيع الإحياء فى زوجها ، فى بيتها ، فى نفسها .. إحياء ماديا ومعنويا ذلك الذى أعنيه .

وهى فى الإدبار والاقبال تعويض وتوجيه وخلق . . . والزوجة الطموح لا تنطفىء روحها مهما اشتدت الريح أو أغطش الليل .

إن الربان الماهر هو الذى يتغلب على الأنواء والعواصف

وهوج الموج . . . أعرف أن الغلبة هذه تكلف الربان كثيرا من المكابرة والمجالدة والصراع . . ولكن النصر ما جاء يوما بلا ثمن . . . ثمن غال .

بل لعل لذة الحياة فى هذا الكفاح . . . فى هذا الكَبد . . . الذى يزيد صاحبه كل يوم جديداً فى ماله ونفسه وتفكيره وتجاربه ورصيده من معرفة الحياة والناس .

وثقى ياصغيرتى أن العيش إذا بلغ حد الرخاوة والطراوة قتل صاحبه، أعنى وأدطموحه. يحفزه، تحمسه، نشاطه .. فيورثه بلادة الحس والخمول وقصور الآمال. وماأتعس الحياة بلا أمل، بلا عمل، بلا غاية ، بلا هدف نحلم به ، ثم نصحو لنسعى إليه، ثم نفرح إذ ندنو منه ، ثم ننتشى من الراحة إذ نظفر به .. ثم... ثم نحلم بهدف جديد .

هذه هى الحياة يا ابنتى قوة دافعة .. روح متأججة .، نفس لاهبة .. رغبة جادة فى التجدد والنماء والاستعلاء .

* * *

إن الزواج المثالى هو البيت السعيد الذى يشرق بالنظافة . ويروع بالتنسيق، ويضىء بالفن صوراً ولوحات وتماثيل ، وينفح بالعطر ، ويشرف بالمكتبة .

إن نظافة بيتك تعلن عن نظافتك، وتنسيقه يومىء إلى ذوقك، وضبط أموره يدل على شخصيتك.

إن باقة صغيرة من الزهر، أو أصيصا هنا وهناك يفيض على عشك الجمال والعطر ويهدى نفس رائيه صفو السلام وهدوء الراحة.

إن لوحة للشروق، أو الغروب، أو النبع. أو الصيد، أو غير هذا من بدع الفن ترتفع ببيتك درجات إذ تقول فى صمت.. هنا إنسانية رفيعة تحس الفن وتقدره.. هنا نفس مصقولة شفها الفن وأضاءها نوره.

إن قدسية الفن يا ابنتى تجعل من الجدران الجامدة محراب صلاة.

إن مكتبة عامرة تحدث عنك: هنا حياة فى نسقها الأعلى.. هنا أشياء أخرى غير الطعام والشراب والنوم.

بمثل هذا يا ابنتى تسمو المنازل وتطيب الحياة.

ومثل هذا يا ابنتى هو الذى يدفع بصفوة الشباب المصرى إلى الأجنبيات. ولست ألومهم وحدهم، فإن الرجل المثقف ينشد صنوا لعقله وتفكيره ومشاعره، ينشد رضى لنفسه وقلبه معاً.

وإذا لم يتوفر له هذا فى المصرية تطلع إلى غيرها فى الأوطان الأخرى . ويا ويل مصر إذا تسربت كنوزها خارجها .

لماذا تنتشر المقاهى انتشارا واسعا فى مصر ؟ إن دلالتها خطيرة ياصغيرتى ، فإنها ما كانت لتنتشر ويتزاحم فيها الرجال هذا التزاحم لو أن فى بيوتهم ما يجذبهم إليها ، ويربطهم بها ، ويحببهم فيها . فان المرء عادة لايهرب من النعيم ولا يركل النعمة .

إذا رأت عينك رجلا يرتاد المقهى فى إصرار ، فاعلمى أن الرابطة العائلية فى بيته مفقودة . اعلمى أن بيته أشبه بفندق يجمعه به الأكل والنوم . وقد كان هذا حال بيوتنا فى الماضى ياابنتى وبعض بيوتنا فى الحاضر ، حيث تكون سيدة البيت تافهة الحديث ، متشابهة الأيام، محدودة الآفاق قليلة الوسائل .

ومن أخص لوازم الزوجة ياابنتى أن تكون لها قدرات شتى . لابد أن تجيد الحياكة والطهى والتنظيف حتى لاتقع فى أسر غيرها ممن يعرف ماتجهله ويعلم أنها تجهله .

وإذا كان من واجبات سيدة البيت الإشراف الكامل العارف الواعى على كل شىء فيه ، فكيف يتسنى هذا الاشراف لجاهلة بشئونه ؟ لاشك أن الزمام يفلت من يدها .

جددى بيتك دائماً تتجدد معه نفسك ونفس زوجك وأولادك.
اقتصدى من يومك لغدك . وهنا أهمس فى أذنك أن الاقتصاد غير التقتير ، كما أن الانفاق غير التبذير . استفت قلبك .
قربى أذنك من فمى مرة أخرى فانى أريد أن أوصيك بالضعف لزوجك. سيطرى على بيتك سيطرة كاملة ولكن ... عند زوجك قفى .
إن الضعف الحبيب لا الذليل يمكّن لك من قلبه لأنه يشعره بسيادته ، لأنه يؤكد رجولته. وهو شعور أثير لديه يحرص عليه، لأنه مدار شخصيته وجوهرها فى نظره ونظر الناس .
إن الرجل يجب يا صغيرتى أن يكون فى بيته السيد المطاع ، فلا تحرميه هذه المتعة بل عززيها بلطف مدخلك ورقة حسك .
اشعريه دائماً أنه رجلك وحاميك تتزن شخصيته، وتبرأ نفسه من مركبات النقص وما تجره على صاحبها من التصرفات فى داخل بيته وخارجه .
ثم مايزال لك عندى وصية أخرى . اهتمى بعمله . اهتمى بمتاعبه... اهتمى بمطامحه. ساعديه بتأييدك وحثك وفهمك، على تحقيقها.
حافظى على سره محافظتك على عرضه وماله . غيبيه فى صدرك إلى الأبد واعلمى أن للثرثرة مع الصديقات موضوعات أخرى . إياك

أن تطلعي عليه أحداً حتى أمك التي تسكب عليك الآن نفسها وعقلها وتجاربها .

ويوم يوقن أنك جزء منه تدورين في فلكه ، وتسيرين في ظله، وتقفين بجواره، وتعتقدين أن خيره خيرك .. يوم يوقن بهذا كله يوم تتأكد منزلتك في نفسه ويتسع مكانك من قلبه ، فيحرص عليك ويغالي بك فلا يبغي عنك حِولا .

هذا هو البيت السعيد يا ابنتي .. الذي تسوده روح الفهم والتقدير والمشاركة الوجدانية والتجاوب العقلي والروحي والتعاون الصادق الصامت المخلص الذي ينكر كلٌّ فيه نفسه ، لأن سعادته الكبرى تتمثل في العش الهانيء الناعم الناعم بالصفو والهدوء والانسجام والسلام .

إن الزوجية عند المرأة المثالية يا ابنتي امتداد للأمومة فهي تحل محلها أو تعوضها أو تكملها .

إنها كالأمومة إنسانية وارفة. إنها كالأمومة إنتاج لا استهلاك . إنها كالأمومة واحة يرتاح إلى بردها الحران واللاغب، ويفيء إلى ظلها المكدودون ومن دميت أقدامهم من وعثاء الطريق .

إن الزوجية المثالية فن يا ابنتى ... فواجباتها كما حدثتك كثيرة ولكن لباقة المرأة المثالية تعلن عن نفسها فى مساوقتها بين هذه الواجبات حتى لا يطغى أحدها على الآخر، فلا يستنفد الزوجة البيت فلا تشرق، أو يستنفدها العمل فلا تنشط ، أو تستغرقها الزينة فلا تؤدى ، أو يجانبها السداد فلا تغنى .

لا بد لها أن تمثل فى البيت فى وقت واحد: المدبرة، والسيدة والمرأة .. ما أكثر مهامها .. وما أشقها .. وما أسعدها . لها الله . متى يا إلهى تصبح فتاتى حفلا من المباهج... أى زوجة مثالية .



إلى تلك التى رفع التاريخ المصرى منها مثالا عالياً «للمصرية» عبر الأجيال والحقب فلم تغير الأيام على تقادمها، الرمز ولا معناه الكريم فى النفوس . بل زاده القدم أصالة وجلالا ومعنوية ..

إلى تلك التى غذت الحضارات وصاحبت المدنيات وأعطت كلا ، أضعاف ما أخذت . ثم كانت من قوة الشخصية بحيث لم

تعشها الأضواء ، ولم تخدعها زيوف فظلت كما هى سليمة نقية كالمعدن الكريم . كريمة وفيه كالنيل الأصيل . حياتها للخصب والإنتاج كأرضنا الطيبة ..

إلى تلك الصبور الدءوب التى هيهات للبساطة أن تحجب عنا عظمتها . . إنها أكبر من المظاهر وأعظم من الزمن نفسه . . فلا أحداثه ولا آلامه استطاعت أن تغير منها شيئا .. لوحت الشمس منها الوجه ولكنه بسمرته رائع آسر، يسحر بالطيبة والوداعة وصدق الفطرة الذى يبز كثيراً أصباغ الحضارة ومطارفها . وعرقت الأرض منها اليدين، ولكنهما بمعالم الكفاح خير من أياد كثيرة تأخذ منها ولا تعطى .. وكم بين اليد العليا واليد السفلى .. وضوى الجفاف منها الجسم ولكنه بشموخ قامته وانسراح عوده مجلى للفن ووحى للشاعر ونموذج للرسام . . إنها أقوى من الفقر نفسه وأعظم من الزمن لأن هاتين القوتين على عتوهما لم تغيرا منفردتين أو مجتمعتين جوهر النفس فيهـا فظلت كرائمها كما هى من وفاء وإباء وبلاء وصبر طويل .

إلى تلك التى امتزجت بوادينا وحملت طابعه فجمعت فى كيانها

النخيل طيبة الأرض ، وعذوبة السماء ، وصبر الصحراء الذى لا ينفد . .

إلى ذات الخمار الأسود التى تنساب بين أعواد الذرة ، وتترفق بين سنابل القمح ، وتتهادى على البساط الأخضر ، وتحنو على النيل مع أنداء الفجر وبسمة الشروق .

إلى تلك التى أعلم علم اليقين أنها لا تقرأ لى هذه العبارات ، ولا تصغى إلىَّ ولكنى لا آسى فكم أدت إلينا جميعا وما انتظرت جزاء ولا نالته ، على أنى لا أسدى إليها هنا يداً ولا أزجى عرفا، فانى إنما أخاطب نفسى حين أخاطبها ، أحيي « المصرية » فىَّ حين أحييها . . المصرية بكرائمها ، بشمائلها ، بطابعها الأصيل ، بأمجادها جميعاً . . أحيي أمى وجداتى منذ فجر التاريخ المصرى إلى اليوم .

إلى الفلاحة المصرية . .

إلى ذات الجرة التى طالما استوحاها الفن فى وقفتها ، وفى مشيتها ، وفى حنوها على النيل الحبيب تستهديه بعض مائه لتستق وتحيا . . ومنه كل شىء حى فى مصر . . وطالما أهداها النهر الخالد مع الماء صفات الولاء للوادى ، والوفاء لأهله . . وإن لم يوفوا .

إلى ذات الخمار التي لم تتنصل بعذر الحجاب عن الكدح الصابر والعمل الدءوب ، ولم تتشاغل بالسفور عن البيت . خدمته ، تدبيره ، أمانيه . .

إلى التي اقترنت حياتها بالأرض . . أرضنا الطيبة . وارتبط سعيها بالحقل ، وتعلق أمرها بالنهر . . فى الغدوات والروحات . .

إلى التي عاشت حياتها عبر الأجيال والقرون تدفع وحدها ضريبة الدم أو معظمها ، فهى التي كانت تقدم أبناءها للميدان حين تلهو أخريات وأبناؤهن . . وإذ ريغ حمانا فى القتال صدرت البطولة عنها ، وتمثلت فيها ، واتخذت من (أم صابر) رمزا للبطولة وعنوانا للفداء . . وسوف يروى تاريخنا عن (أم صابر) وقرية (أم صابر) أمجادا يدخرها ، ومُثلا عريقة لأبناء وأحفاد يستمدون منها عزم النفس ، ويقبسون منها وهج القلب وشعلة الروح ، ويعيشون فى قصتها ، ويخفقون فى الغد لها ومعها كما خفقت قلوبنا بالأمس متحفزة متوفزة مستطارة مع (أم صابر) . .

إلى الفلاحة المصرية

إلى التي تتمثل قيم الحياة وتسير على سنن منها ومثل وإن لم تحمل الأجازات أو تجيد لغات . إلى التي تجود بنفسها لأسرتها

الخاصة: زوجها وبنيها، وأسرتها العامة: قومها .. المصريين.. تهب حياتها للجميع قطرة قطرة.. نبضة نبضة.. ومضة ومضة.. سهراً وعملا، وكفاحا.. على الضنى والحرمان.

إلى الفلاحة المصرية

إلى سيدة مصر الأولى وإن لم يتألق على رأسها تاج ولم يسبق اسمها لقب، ولم يحط بها ترف قصور، أو تحية جمهور، أو ملق نفعيين ومبتغى زلفى.

إن سيادة الفلاحة المصرية من عمل التاريخ، ومنطق الواقع، ومقتضيات العدالة والعرفان. وكم ساد غيرها بغير إقرار من تاريخ الشعوب، أو سند من منطق الواقع، أو مظاهرة من عدالة الإنسان..

إلى الفلاحة المصرية

لقد تيقظ إحساسى بك منذ تيقظ إحساس مصر بالفلاحين فعقدت لهم مؤتمراً.. وفكر الناس يومئذ فى الفلاح وفكرت أنا فيك.. فكرت فى الفلاحة المصرية.. وظلت هواجس نفسى، ومعانى فكرى تطوف بك وتستمد منك، وتستغرق فيك.. ومن عجب أنى كلما امتلأت نفسى بمعانيك عجزت عن

الـكتابة عنك .. فأرجئها لأعيش فيها . . واليوم بعد أن انفض مؤتمر الفلاحين أكتب هذا الذى قد يرقى إليك . ولم يزايلنى بعد شعور العجز عن الإحاطة ، والعجز عن الوفاء .. الاحاطة بالفلاحة المصرية . . والوفاء للفلاحة المصرية . .

كيف غابت عنهم دعوتك إلى المؤتمر الذى عقدوه للرجال الذين صنعتهم يداك . . . وما حيلة الفلاح المصرى بدونك . . . ماجدواه . . أنت التى تهيئين مأواه ، وتعدين غذاءه ، وتنجبين أبناءه . . ثم . . ثم تعملين بعد هذا كله معه فى الحقل . . جنباً إلى جنب ، ويدأبيد ، حتى إذا آذنت الشمس بمغيب قفلتما راجعين إلى الدار ليلقى هو تعبه على عتبتها حيث يجلس يسامر جيرانه ، وتدلفى أنت إليها تعدين العشـــاء ، وتطمئنين على دواجنك . وتتعهدين ثروته الصغيرة الـكبيرة الممثلة فى الجاموسة العزيزة عليكما معا . . كل هذا وما استرحت ولا نعمت بعد كدح الحقل بسمر مثله أوحديث ... كم تتحملين ... وكم تتجلدين . .

أنت مصدر الثروة فى ريفنا بل والحضر . . فاللبن ومنتجاته

والدجاج وبيضه . . كل هذا من صنع يديك . . أنت التى تبيعين وتشترين فى الأسواق لحركتها معقودة بك ، كما تعتمد ميزانية بيتك عليك . . كان هذا وضعك منذ قديم حين كان يعتمد كيان مصر الاقتصادى والحضارى على الزراعة وحدها . فلما أخذنا بالصناعة تغيرت القيم والمقاييس.. وطغى لغط المصانع وصخبها على هدأة الريف الساجى . فنسينا أن الصناعة موصولة بك أيضاً ، قائمة عليك فعمالها أبناؤك ، وخاماتها من عندك خرجت ، وفى أرضك نشأت . . وعن إيثار تصدرين هذا كله إلى المدينة ولا تسألين متى يعود . .

وينسى الواصفون كفاحك المؤمن وإيمانك الصابر . ويتحدثون عن المحسنات الفاتنات . . . وكأنهم ما رأوا إحسانك وما عاشوا من إنعامك! بل يتجاوزون النسيان إلى ماهو شر منه فيرمونك — إن ذكروا — بالجهل والخرافة وأمراض الاهمال وتضييع الأطفال . ونسوا أنهم هم الذين استنزفوك فأفقروك وجهلوك . نسوا أنهم هم الذين استأثروا بكل شىء لمدينتهم دون قريتك فأقاموا المدارس والمستشفيات، وركزوا المرافق الحيوية جميعاً فى المدينة

وتجاهلوا الريف! حتى خيراته انتزعوها منه انتزاعا فجاع وضاع، والخير موفور والخصب غامر . .

ومع هذا كله يتشدقون باسمك ، ويتصايحون بإصلاح قريتك ويتباكون على حالها وحالك ، ويتذاكرون جهادك الثائر . . . ولكن حذارك فإن من وراء هذا كله أضواء الحكم وسلطانه ، أو كرسى البرلمان وجاهه أو .. مآرب أخرى ..

إن الحق ياسيدتى لا يمنح ولكن ينتزع انتزاعا ويؤخذ غلابا. ولا يضيره شىء كالهتاف والوعود التى تخدره وتوهن من حماسته .. أنه لا يقبل المناقشة فيه ، والمساومة به . . وسلى مصر هل تجدى شيئاً المناقشات والمساومات والمفاوضات؟ سليها يأتك الخبر اليقين . .

كم لك من حقوق عليها لم يبلغها بعد، الأداء .. لقد ردت إليك قطعة عزيزة من الأرض الغالية وهو حلم طالما بهرتك روعته فى المنام ثم تُـكذب الأيام .. أما وقد صدق الحلم ، وصحت الرؤيا فتعالى نروم أموراً أخرى . .

إن من حقك كمواطنة مصرية أصيلة أن تنعمى بالبيت الصحى والماء النقى ، وأن تقوم فى قريتك المدرسة والمستشفى . . . آن

للدولة أن تسهر على راحتك بعض سهرك على خيرها ونعمتها .
وكم بين الاحسان المطبوع والعرفان بعد نكران .

سيدتى الفلاحة المصرية

إنى كما قلت لك ممتلئة النفس بك . . وكم فى صدرى من معان وأمان لا يحجبها تقصير ولكن يعوزها التعبير . فاقبلى منى اليوم هذه الصلاة لعل ربى يحققها . . ولعل وطنى يباركها .



إلى المصرية الثانية التى اختارت ريادة طريق أخرى ملأى بالصعاب والعقبات فلم تحجم ولم تهن بل تصدت فى عزم أبىّ ، وإرادة مصممة وجنان جرىء . . وقامت الدنيا يومئذ على وقع الوثبة الطافرة والقفزة الظافرة وتصايحت من حولها يمدح قوم ويقدح آخرون . وانتصر لأولئك وهؤلاء كثيرون فلم تنثن

عما شرعت فيه ولم ترعو من جعجعة الصياح بل مضت فى طريقها دما لا تحفل كالقدر بشىء. ولا أنكر أنها تعثرت من صلابة الصخور فى الطريق ودميت من قسوة الأشواك، ولكنها كانت تنهض بعد كل عثرة وتلتئم بعد كل وخزة ثم تبدأ من جديد.

إلى الفتاة الجامعية التى أرادوها على الحجاب فما لانت، وسدوا فى وجهها الأبواب فما استكانت، وبثوا فى طريقها الألغام فما يئست، وسمعت بأذنها التشهير والسخرية فما ابتأست بل كانت فى كل مرة تقف قليلا تقارع الحجة بالحجة وتدافع الرأى بالرأى ... ثم تبدأ من جديد.

ودخلت الفتاة المصرية الجامعة ... الميدان الذى اختارته للكفاح.. دخلته محجبة ملثمة كالفارس، وخرجت منه متوجة منتصرة كالبطل. وكطبيعة الجلاد دائما لم تسلم من الجراح، ولكن الرعيل الأول، ويتكون من أربع فتيات خرج إلى الحياة العامة ليبدأ آخر من جديد!

ساوموها بين الكسب وبين العش فضحت بالثانى وهو نعيمها تحت تأثير المقاومة، وتحت تأثير أضواء الحياة الجديدة الواعدة، وتحت تأثير العقد المكبوتة فى نفسها من عبودية «الحريم». فاقترن

العمل عندها بالحرية، واقترن الكسب في رأيها بالكرامة، فحرصت عليه.. وكانت تطوى نفسها على شيء حين اختارت الكسب على العش في بادئ الأمر... كانت ترى أن تتزود بالمال وتتسلح بالوفرة لتكون أقدر على تحقيق حلمها الأزلي، وليكون الطلب حولها أرغب. فقد عرفت من عهد الحريم أن الرجال لا يترددون في التفضيل عليها، بل وفي نبذها مالم تقم شخصيتها على دعامة من مال أو جمال أو جاه.. وهي أسلحة تحمي الضعف ولا تخفيه.. فلما عرفت العلم استعزت به سلاحا، تقوى به الشخصية، وتصان معه الكرامة، ويواتي على ضوئه الحظ ويؤاتي في ظله المال ويحسب لها من أجله الحساب كل الحساب.

ولكن حذار أن تتخذي العلم سلاحا أو تتوسلي به إلى الوظيفة لحسب! إنك بصفتك مثقفة — لا متعلمة فقط — لابد أن يكون لك أهداف إنسانية تميزك عن السواد الذي وصفهم أحد المؤرخين لأحد الملوك بأنهم يولدون ويعيشون ثم يموتون.. لابد أن يكون لك أهداف إنسانية فإن من حق وطنك الذي أتاح لك فرصة العلم العالي وكانت كلمة « المدرسة » عند جداتنا وأمهاتنا حلم خيال وأوهام حالم.. من حق وطنك هذا عليك

أن تحسى آلامه فى عمق وولاء ، من حقه أن تحققى آماله فيك ، وآماله فى غد كريم عزيز .

إنك تذكرين حديثى السابق إلى أختنا الفلاحة المصرية وأنت بلامراء تعرفينها معرفتى لها تلك التى وهبت مصر حياتها وأبناءها منذ فجر التاريخ إلى اليوم ، كما تعرفين أن عدد الفلاحات بضعة ملايين بينما لا يتجاوز عدد الجامعيات بضعة آلاف . . . ومع هذا كله حاباك وطنك على الفلاحة ، المواطنة الأولى! وآثرك بالكثير دونها فلا تنس هذه المنة له . . لا تنس . .

إلى التى خرجت إلى الحياة العامة أول ما خرجت لتُعلم فتعلمت هى الكثير وتبلورت وإستطاعت أن تسجل انتصارات شتى فى ميادين أخرى غير التدريس الذى حدوها فى دائرته أول الأمر ، ثم لم يلبث الناس ولم تلبث الحياة أن عرفتها طبيبة وأديبة وصحفية . وعرفتها الوزارات والمصالح المختلفة فليس بينهما الآن مصلحة لم تعهد إليها بعمل ما . .

ولكن اذكرى مع هذا أننا ما تعلمنا لكى ننافس الرجال على لقمة العيش ، ولكن لنزيد من قدرات وطننا الكبير مصر ،

ولنزيد من قدرات وطننا الصغير البيت . . . إننا جميعاً نتعاون لنصل بالموكب الهادر الجاهد إلى هدف كريم . .

لا ندعهم يظنون بنا أننا تعلمنا لنكابرهم بغير سند، أو نطاولهم من غير منطق ، ولكن لنشعرهم أننا نرضى أذواقهم وعقولهم ونكون لهم كفاء . . وثق أنهم ـ والممتازين منهم خاصة ـ لا يستبق ودهم ، ولا يأسر قلوبهم كالتجاوب العقلى والتشارب الروحى . .

إلى التى حاولت أن تجمع بين مشاق العمل ومهام البيت فهى الساعية الدءوب فى الحياة وهى الزوج وهى الأم وهى ربة البيت فإذا بها تنجح فى العمل نجاحا يزعج الرجال أو بعضهم ، وإذا بها تنجح فى بيتها نجاحا تتطلع إليه ربات الحجاب ، وإن كان نجاحها فى الجهتين معا يرهق أعصابها ويضنيها . ومن أجل هذا أحييها وأدعو إلى إكبارها .

قد يحسبون عليها العثار والمزالق التى وقعت فيها بحكم الاحتكاك فى سبيل السعى فى الحياة والجرى فى مناكب الأرض. ولكن هذه العثرات بعينها تحسب عندى لها لا عليها، فلا بد للتطورات الجامحة، ولا بد للنهضات المتطورة من كبش فداء! وقد كانت الجامعية المصرية الأولى كبش الفداء هذا. إن جيلنا قنطرة تصل بالأجيال

القادمة إلى بر الأمان بعد أن تهديها تجاربنا وأسباب فشلنا وعوامل نجاحنا ومعالم كفاحنا، وهيهات للبناء سامقا شامخا أن ينكر الأساس الوطيد وإن غاب تحت الثرى بعيداً عن الشمس.

ولكن ياصديقتى الجامعية أعيرينى سمعك أُسر إليك حديثا.. إن خصوم نهضتك من الرجعيين والمنافسين يشيعون عنك أمورا لا تخلو من الحقيقة وإن بالغت فيها.. يقولون إن من الجامعيات متبذلات فى ثيابهن وزينتهن وحديثهن أيضا.. متبذلات حتى فى حرم الجامعة على قدس رواه.. وبعض هـــذا الذى يقولونه شهدته بنفسى حين كنت مثلك طالبة بالجامعة.. ألاترين معى أن التبذل شيء غير الأناقة التى تروع بالبساطة وتسحر بالكمال؟ ألا ترين معى أن الحديث الغث التافه من مخلفات عهد الحريم الذى ثرت عليه، وخرجت على تقاليده ونشدت لنفسك فوقه منزلة أخرى؟

ويشيعون ياصديقتى الجامعية أن من الجامعيات مغرورات مستكبرات.. ولا أحسبك تنكرين بعد الذى وعته نفسك من علوم الإنسان أن العلم الحق يحمل على التواضع ولا يجافيه، وأن الثقافة الرفيعة

التى تتسم بها الجامعة لا تتعلق بمظهر كاذب من الزهو لأنها بغنا اوحلاها كبيرة بذاتها ، شامخة بنفسها ، وصاحبها كاسى النفس فما هو بحاجة إلى الكبر يموه به نقصاً ، أو يغطى به عورة كما يفعل المتكبرون والحمقى . .

ويشيعون ياصديقتى الجامعية أن من الجامعيات فارغات يتشدقن بالأجازات التى يحملنها ثم تكشف المناقشة معهن والاختبار عن خواء مهين . وأخالك تقولين أن من بين زميلاتنا الطلبة والخريجين من لا يرتفع كثيراً عن هذا المستوى ، وأن من بين الخريجات من عبرت البحار لتساهم باسم مصر فى أبحاث الذرة . . وأن من بين الخريجات من سمت إلى كرسى الأستاذية ليجلس أمامها الرجال يتلقون عنها ويستضيئون . .

وهذا بعينه أقوله أنا إذا احتدم الحوار . . . ولكنى أناشدك أن تزيدى بنفسك رصيدنا من العلم الصحيح والثقافة الحقة يزد عدد الباحثات والأستاذات والشموع . .

ويشيعون ياصديقتى الجامعية أن العلوم النظرية شغلتك عن رسالتك الأولى فى الحياة وواجبك الأكبر . . الأسمى . .

شغلتك العلوم النظرية هذه عن الأمومة . . عن الأسرة . . عن البيت مملكتك الصغيرة الكبيرة . . جنتك المثلى . وما كانت هذه العلوم لتشغلك عن هذه الأقداس لولا أنك أنت باختيارك تتشاغلين عنها استهانة ، أو ترفعا ، أو تصونا أو تأقرطا لو صح هذا التعبير . . خذى هى كسيدة جامعية أن المرأة مهما حصلت من علوم ووعت من معارف ، ونالت من وظائف ، وبلت من مراتب ، إنما سعادتها ماثلة فى البيت أولا وآخراً . . مهما تطوحت ، مهما تطرفت ، ماينفك كيانها ، رضيت أم لم ترض موصولا به . . قد تحاول أن تجعل الوصل خيطاً دقيقاً من حياء أو من استعلاء ولكن الخيط وإن دق تراه العيون كلها وتدركه العقول كلها وتحسه النفوس كلها بما انطوت عليه من مشاعر الإنسان . .

خذى هى كزميلة أن لوحة تعلقينها فى بيتك لتوسع آفاقه وتزيد معناه لهى منبع ثر للسعادة لا تستطيعه زخارف الحياة الخارجية متفرقة أو مجتمعة . .

وأن أزهارا تنسقها يدك فى ركن من عشك ثم تقرين وسط هذا الجو الفاغم بالعطر . الناغم بالجمال ، الحالم بالزهر ، الموحى

بالشعر . . هذه اللحظة لو تعلمين أهنأ وأنعم وأصفى من قشور الحياة الخارجية التى تستهوى الكثيرات وتستنفد منهن الوقت والمال . .

ان الإشراف التام الكامل على شئون بيتك متعة لا توصف ونعيم لا يحدوهو منك ربيبة الجامعة أوقع فى النفس وأكرم فى العين..

أنا لا أطالبك أن تستنفدى نشاطك ووقتك فى أعمال تنهض بها لك الأدوات الحديثة أو تغنيك عنها خادم مادام هذا فى استطاعة ميزانيتك، ولكنى أنا شدك أن يكون لبيتك المقام الأول ، والاعتبار الذى يهون فى سبيله كل اعتبار عداه . .

ويشيعون ياصديقتى الجامعية أن من بين الجامعات من تتنكر للوسط الذى خرجت منه ، بل وتتطاول على البيئة التى نشأت فيها وتجحد العوامل المشتركة التى صنعتها وسوتها . . وهذه من سائر الأقاويل لا يريد سمعى أن يصدقها ، ولا أريد أن أكرهه على تصديقها وإن كنت أخشى أن يكون عليها ظل من الحقيقة .

إنك تعلمين ياصديقتى كما أعلم أن مهمتك كجامعية وصلت، أن ترفعى المتطامن ، وتدفعى العاجز وترقى بالخامد ، وتثيرى الجامد، وتبثى الحياة ، وتشيعى المعنويات حواليك . أعط من روحك أقباسا

تضيء فالكل أهلك وعشيرتك . . إنك مصرية وهم مصريون . وما أنت إلا بضعة منهم ، وليس للسحاب مهما علا فى السماء أن يتفضل على البحر حين يجوده لأنه من مائه .

إنى أناقشك الحساب لأنى أنتظر منك الكثير وأأمل فيك . ومالى لا أفعل وأنا أرى المرأة فى الأجيال السابقة كانت ظلا للرجل إذا عظم طال الظل ، وإذا قيء انحسر . . فكانت شهيرات النساء أم خليفة أو زوج ملك .

من نهضن على أقدامهن وحـــدها قليلات معدودات واحدتهن مغنية أو فى حكمها . . وأقل من القليل الشاعرات والحاكات والعالمات . .

أما الآن فقد أعلنت المرأة عن نفسها بلسانك ، وأثبتت وجودها بكفايتك ، وأبدت رأيها بعقلك ، وأخذت مكانها فى الحياة والتاريخ على يديك .

ومن عجيب أن تبلغ الجامعية هذا كله بوساطة أبوين هما فى الأعم الأغلب غير جامعيين ولكنهما اهتديا بفطرتهما السليمة الكريمة إلى هدف نبيل مشرئبين إلى قبة الجامعة . ترى أى جيل ننتظره منك أنت ؟ أنت التى وُفرت لها إمكانيات شتى ،

وثقافات شتى، وقدرات شتى.. قدرات مادية وأدبية ومعنوية . .
أى جيل هذا تراه؟

* * *

بودى ألا يخدشك نقدى فإن التى تحدثك زميلتك فى الدرس وفى الاسم العظيم الذى ننتسب إليه : «الجامعة» . ومن ثم يؤرقنى ما تعاب به الجامعية كما يشرفنى حسناتها وأمجادها . . . وما هذا الحديث بتحياته وعتابه إلا صدى مشاعرى المشبوبة التى هزتها خطوانك الثابتة ، ومظهرك النابغ فى طريقك إلى أمنا الجامعة فى مستهل العام الدراسى الجديد . .



نموذج آخر يا ابنتى أحب لك أن تفتحى عينك عليه وتفتحى قلبك له . . إنه العاملة المصرية . . تلك السيدة الطاهرة إذ ترفعت على البطالة التى تنتظر عودة العاملين لتعتصرهم وهى مستكينة إلى راحة الخمول أو خمول الراحة .

ألا تظنى يا ابنتى أنها فطرة سليمة تلك التى دفعتها إلى العمل وما بصرها به علم مرشد أو لقنها معناه ودلالته درس حصيف ؟

إنها الفطرة السليمة وإنها الاستجابة أيضاً لطابع العصر فلم يعد الشرق وفى طليعته مصر يؤمن بنظرية الاكتفاء بنصف الأمة وترك النصف نساء يقضين العمر فى الحجرات .

لقد خلفت العاملة المصرية بيتها المتواضع خلفها وخرجت إلى حياة ساعية إلى المصنع جريا وراء الرزق . فلما عرفتها الحياة تبلورت ، وفهمت ، وفطنت إلى الكثير الذى كان ينقصها ومن ثم فهى أصلح زوجة للعامل لأنها تعرف شقاءه ، وتقدر بلاءه ، وتزن جهده عن مكابدة وإحساس .

افرحى لها يا ابنتى مكافحة يعصمها الكفاح بطبيعته ، ويحميها العمل برهقه ، من الفراغ وما يجره على صاحبه من مآس .

لقد أثبتت الحروب والضرورة كفاءتها فملأت الفراغ فى ثقة وجدارة .

لم تعد عالة الآن بل هى إذا حزب الأمر تتقدم لتعول فى جلد صابر وصبر مكابر يتحدى الهوان والحرمان ... أصبحت

لها قدرات مختلفة الآن · والانسان يا ابنى بقدراته .. وبمبلغ حذقة لهذه القدرات .

ومن عجيب أمرها أنها غزت السوق الآن فأقبل عليها ، لصفات الصبر فيها والقناعة ، أصحاب المصانع بل أصبحوا يفضلونها على زملائها الرجال ..

وارتقى مظهرها شيئا فشيئاً بالوفرة والمحاكاة فابتعد عنها شبح البؤس وأماراته . وأكبر من هذا وأخطر ، تحللت نفسها من ذلة ، وتخفف رأسها من انكساره ، وصفا وجهها من غبشه وانطفائه .

لقد انبعثت من جديد إذ غدت تشعر بكرامة الكاسب وعزة الحى .

اصنعى من أجلها شيئاً لو استطعت يا ابنتى أو مكنتك الأيام .. إنها مواطنة جديرة بالخير .

طالبى لها بحق العلم فإنى أخشى عليها الزلل فى زحمة الحياة التى ليس فيها رحمة .. إن الحفر كثيرة وأخشى عليها التردى .

طالبى لها بالتربية الصحيحة فهى خير واق .

طالبى لها بزيادة الدخل ترتفع معنويتها .

طالبى لهـــا بتعدد الفرص وتكافئها تبرز إمكانياتها وإنتاجها .

احملى مجتمعك على احترامها تؤكدى فى نفسها العزة ، وتدعمى فى عقلها معنى الكرامة .

احمليها أيضاً على احترام نفسها فإن من يحترم نفسه ينأى بها عن مواطن الشبهات .

وفيها حقها من التقدير المادى والمعنوى يزدد إقبالها على العمل ، وتقو رغبتها فى إتقانه .

ارقبى مواكبها الساعية فى البكرة الندية مع أشعة الشمس . . مع العصافير . . مع العاملين من كل لون وصبغة . . . قدسى كفاحها الصابر . . قدرى جهادها المثابر .

قدريها بإنسانيتك إنسانة ، قدريها بوطنيتك مواطنة . . قدريها بمصريتك مصرية تشارك فى بناء الوطن .

باركيها يا ابنتى بملء هذه المعانى فيك . . إنها أدنى إلى قلب مصر من أولئك الثرثارات المتبطلات اللائى يستهلكن جهود العاملين ولا يعطين شيئاً .

إن تقوى المرء كما تعلمين طريقة الصاعد إلى السماء ، والعمل معنى من معانى هذه التقوى فى الاسلام .

وفد قوم من سفر على نبينا محمد عليه السلام وأرادوا أن يمدحوا رفيقا لهم عنده فحدثوه عنه أنه كان يقوم الليل ويصوم النهار . فقال لهم فى حكمة الرسول ووعى المصلح : من كان يقوم على طعامه وشرابه ؟ فقالوا كلنا فقال : كلكم خير منه .. إنما أنا أصلى وأقعد ، وأصوم وأفطر ..

لقد فاق العمل فى رأى هادينا يا ابنتى ، العبادة . ولم لا ؟ إن العبادة بين المرء وربه . وجدواها على صاحبها وحده دون الناس. ولكن العمل مهما تواضع، قوة دافعة تدفع بعجلة الانسانية إلى الامام وتبارك سعيها إلى التعمير .

وكم بين من تكد وتزيد إنتاج العاملين وبين من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟..



التافهات

إن الحياة ياابنتى مدىواسع زاخر بصور شتى . وإذا كنت قد طفت بك على النماذج ، فإننى أطوف بك أيضاً على صور شائهة لتحذريها ، فإنى لا آمن عليك الشر إن لم تعرفيه عن كثب معرفة الدراسة والعبرة .

أراد أحدهم يا صغيرتى أن يمدح صاحبا له عند عطر التاريخ

عمر بن الخطاب فقال : إن صاحبي لايعرف الشر ، فرد على الفور الرجل المجرب فى حكمة العارف : ذلك أحرى بأن يقع فيه .

أعرفت إذن سر وقوفى بك عند الصور الشائهة ؟.. . حتى لا يقع شبابك فيما وقعت التافهات فيه .

والتفاهة خواء له عوامل وله مظاهر . أما العوامل فأكبرها عندى الفراغ . . إنه ثقيل طويل مضيّع . . ومن ثم يوصى علماء التربية الآن أن يُنشأ الطفل وله قدرات مختلفة ، وله هوايات تستنفد وقت فراغه وتستأثر بشغفه . . . إنه خوفهم من الفراغ يا ابنتى ومآسيه .

ومن أسباب التفاهة الجهل . لست أقصد الجهل بالقراءة والكتابة فحسب، ولكنى أعنى أيضاً العلم الزائف . . الطلاء .

فالجاهل جهلا تاما ، التفاهة عليه قدر محتوم لأنه صفر اليدين من العلم .. من الفن .. وفاقد الشيء لايعطيه .

أما زائفو التعليم فتفاهتهم أثقل ظلا ، وأشد وطأة لأن العلم منهم غراس طيب فى مهمه قفر فلا هو أجدى عليهم، ولا هم حفظوه .

وإذا كان العلم مفخرة تعلو بصاحبها، فانه بالنسبة لهؤلاء التافهين مجلبة للمذمة والانتقاص والسخرية، لأنهم كالعيس التى يقتلها - لغفلتها - الظمأ، والماء فى جوفها محمول. أو كالحمار يحمل أسفاراً ثم يظل حماراً.

حذار يا ابنتى أن تقنعى من العلم بالقشور دون اللباب . . . انفذى إلى أعماق العلم بمنحك سره ويهبك غواليه.

اعرفى له حرمته يبسط عليك جناحه، ويخلع عليك طابعه وهو عظيم.

ومن أسباب التفاهة الغرور . . فالمغرور تنكمش الدنيا فى نظره حتى تصير فى حجم المرآة فلا يرى فيها إلا نفسه . . ثم يعميه الغرور مرة أخرى فلا يرى فى صورته إلا مزايا خالصة هيهات أن يبدو معها عيب واحد . . واحد فقط !.

ومثل هذا المخدوع يا ابنتى بما يفتعله من حركات يدعو الناس إلى التفتيش عن عيوبه والتشهير به، كرد طبيعى على التيه الأحمق والاختيال الأجوف، والتعالى الكاذب، والتصعير المضحك وما خرق الأرض ولا بلغ الجبال طولا.

ومن عوامل التفاهة افتقاد الهدف. فالذى يعيش تائها بلا غاية..

بلا رسالة ... بلا هدف، إنسان تافه لا يستحق الحياة .. لأن الحياة نعمة يجب أن يشمل خيرها الفرد والمجموع .

ومثل هذا المضلل الضائع، فى سبيل تبرير فشله،يقضى الوقت يهوّن من نجاح الناجحين ويعزوه إلى غير أسبابه ليغطى هوانه على الحياة والناس .

ومن عوامل التفاهة أيضاً افتقاد المثل الأعلى ! فإن الذى يصعد ببصره إلى القمة يحاول بدوره أن يرقى إليها مرقبا بعد مرقب.

هيا تطلعى إلى أعلى القمم واعزفى جهدك عن الأغوار ، فإن على قدر العزم تأتى العزائم .

ومن أسباب التفاهة الأمومة الفاشلة ،فإن الفرخ إذا لم تدربه أمه فى العش على التحليق حط على الأدنى لأنه ناسل الجناح .

زينى لبنيك الكرائم وأهليهم لها ،يسعوا إليها كباراً .

ومن أسباب التفاهة التعويض الخاطىء عن نقص . . إن سوىّ الفطرة يستعلى بالتبريز فى الفن أو العلم أو الأدب ولكن الملتوى يغطى النقص بنقص أكبر منه ، فتشوه تصرفاته وأفعاله حتى لتدخل كلها بلا عناء فى باب التفاهات .

والتافهات أنواع يا ابنتى. منهن الغنية والفقيرة ، منهن المتعلمة والجاهلة ، ولكنهن فى التفاهة سواء وإن اختلفت المظاهر . . مظاهر التفاهة .

فالغنية التافهة فراشة مهمتها لف ودوران فى محلات الأزياء . . لف ودوران فى البحث عن الأنباء . . فإذا احتواها مجلس كان حديثها غثا لا فكر فيه ولا عمقا . قصاراه قصص متعالم عن الافلام ، ونقد رخيص للزيجات الجديدة . وإطراف ثقيل بحوادث الطلاق الأخيرة .

وتقضى تفاهتها أيضاً أن تكون مسخا مشوهاً لكواكب السيما اللائى تقلدهن تقليداً أعمى ناسية أن ما تراه منهن على الشاشة ، إنما هو تمثيل لا يتجاوزن به استوديوهات هوليود ، بل إن منهن خريجة الجامعات . . . ولكنها التفاهة . . . تفاهة العقل والشخصية معاً .

أما الفقيرة التافهة فلعل عينك لمحتها حين حدثتك عن ذلك لسبب من أسباب التفاهة وهو التعويض الخاطىء عن النقص ، ولا أعيده فانى أعلم مبلغ وعيك عن ما أقول .

أما المتعلمة التافهة فرغم أن الحديث دار حولها فى بدايته، فإن فيه بقية كبيرة عنها أريد أن أفضى بها إليك.

أو تعلمين أن تفاهة المتعلمة تعقد مشكلة جسيمة فى مجتمعنا المصرى؟ لأنها بمثلها السيىء تنفر الشباب من الزواج. وليت الأمر اقتصر عليها إذن لكان أقل الجزاء. ولكنه للأسف يسىء إلى المتعلمات عامة ويزرى بهن ولا جريرة. فالمتعلمة التافهة تغدو برذائلها القاعدة التى تطبق بلا عناء على الباقيات لأن الشر أسرع مسارا بين الناس. فإذا اقتصد منصف فى التعميم، انطوى بلا مراء على شك يدفعه إلى الاحتراس المتهيب عند الاختيار والتفضيل.

والمتعلمة التافهة تعوق تحرير المرأة بدلا من أن تدفعه إلى الامام. وهى بما تثيره من لغط وتندر وسخرية لاذعة تهبط بالعلم وتصم المتعلمات.

قد تكون من حملة الشهادات، ولكنها لتفاهتها إذا قرأت فالمجلات المتبذلة، وإذا تفكهت فالنكت الفجة، وإذا تحدثت فالقيل والقال ولجاجة السؤال وفضول التطفل، وانتقاص الناجحات فى العمل والزواج من زميلاتها قبل غيرهن.

لاتعجبى يا ابنتى فإن الحياء إذا غاض لايبالى صاحبه شيئاً!!

تعرفين يا ابنتى أن الزى له مدى إن زاد عليه ج وسقط ، ولكن التافهة تنحصر عندها القيم والمقاييس والمظاهر فى الزى . وهى تتخذه سلاحا أيضاً وتحسب لتفاهتها أنها كلما بالغت فيه إلى حد الخروج والتبذل ، كلما زاد السلاح شحذا وصقلا .

ثم تعرف بعد لأى أنه مفلول . . . وأن المعجبين خدعوها بقولهم حسناء ! وأنهم والمعجبين بالطاووس سواء . فالكل يعلم أنها كهذا الطائر منظر ولا جوهر ، ومظهر ولا مخبر ، وشكل ولا موضوع .

وأخيراً من مظاهر التفاهة المعاملة غير المصقولة ، والحديث غير المصفَّى ، والصوت غير المتزن ، والتقويم الأرعن للأشياء والناس . كلها يا ابنتى من أمارات الشخصية التافهة التى لا غناء فيها ولا رواء .

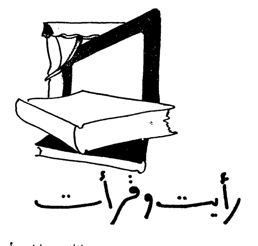
حذار يا ابنتى من التافهات لا تقربيهن مهما كانت ثقتك بنفسك ، وثقة الناس بك فإن مخالطهن كراكب البحر الذى يصفه ابن المقفع بأنه إذا سلم من الغرق لا يسلم من الفرق . .

حذار يا ابنتي من التافهات فإن الوقت معهن مضيعة ، والجلوس إليهن مفسدة ونقيصة .

حذار يا ابنتي من التافهات . تجنبيهن ما استطعت حتى لو جمعك على رغمك بهن مكان . . لوذي بالصمت وتعللي بالأعذار لتتحللي من إحداهن . . . وأقول تعللي بالأعذار لأن شر الناس كما يقول رسولنا الكريم يكرمون اتقاء ألسنتهم .

عصمك الله من التفاهة . وحباك بهبة الفن . وشرفك بمجد العلم . وزانك بحلى الأدب . ونضر بك الحياة ونفع الناس.





رأيت وقرأت

إنك فى خاطرى أينما كنت. أشركك فى الرؤية وإن لم تفعلى ، وأخصك فى المتعة بالحديث وإن لم تعقلى، وأتمثلك فى قراءاتى وإن لم تشبى بعد عن الطوق .

لا تظنى هذا الباب قاصرا على ما سجلته لك فيه ، فإنى أدخر لك من هذا اللون الكثير الذى

يضيف إلى هـذا الكتاب
أجزاء أخرى .

إنك هنا ستقرئين صفحات
من تاريخ وطنك.. صفحات مشرقة
يعتز بها هذا الوطن المجيد . .
وعليك أنت بعـد هـذا أن
تستزيدى فإنك كلما اتسعت
معرفتك به كلما عمق حبك له،
وإيمانك به ورجاؤك فيه . .
وستقرئين هنا أيضاً أشياء كان
يمكن أن تلهينى عنك بسحرها
ولكن هيهات . إن عينى أصبحت
ترى الدنيا من زاويتك الخاصة.
إنى مسيرة الآن بقوة خفية أنت
مبعثها . . . فالنافع اختزنه لك.
وإن عز على امتلاك أمر تمنيته
لك ، فالمنى سعادة على كل حال.
ومن يدرى فقد تصدق الرؤى
و تتحقق الأحلام.. إنى متفائلة .
بك مستبشرة . .

من مصر

لنبدأ بوطنك فهو أمس بقلوبنا وأقرب إلى هوانا . ولكن تاريخ وطنك طويل يستغرقنا ويستغرق مجلدات ! ففيه أيام وأحداث ووقائع وأعلام ... كيف أحدثك عن هذا كله ، حدثيني .. يكفينا الآن الماضى القريب الذى تأثر به الحاضر الذى نعيش فيه . . والفترة التى أشير إليها يا ابنتى فترة عصيبة مثيرة موجهة فى تاريخ وطنك . وقد صنعها رجال احترقوا ليضيئوا لوطنك طريقه جيلا بعد جيل وما زلنا على هداهم نسير .

وقف الرئيس جمال عبد الناصر يوم ٢٧ يوليه يهتف بالبشرى . فكان أروع ما قاله فى ذلك الخطاب التاريخى وأمسه بروح مصر الخالدة ، تلك الصلاة على روح الغائبين التى أداها بقوله :

« إنى أسرح بخواطرى فى هذه اللحظة المجيدة عبر أسوار الحياة إلى الذين جاهدوا من أجل هذا اليوم ولم يمتد العمر بهم ليعيشوه » .

ما كدت أسمع من الرجل المنصف هذه الكلمة حتى سرحت بخواطرى إلى الذين تلقوا الصدمة المروعة سنة ١٨٨٢ ، وإلى الذين زلزل أمنهم قصف المدافع فى الاسكندرية، وإلى الذين روع رشدهم هول المواقع فى التل الكبير .. سرحت بخواطرى إلى أولئك الذين كربهم النفى والتشريد والحرمان ، وإلى أولئك الذين هدهم السجن والتعذيب والمرض ، وإلى أولئك الذين أمضهم الاعتقال والمصادرة وإلى أولئك الذين اندلعوا سنة ١٩١٩ يلقنون الغاصب درساً أوقن أنه لم يغب عنه بعدها أبداً ... إلى أولئك الأبرار من الشبيبة المصرية الذين سقطوا فى حرم الجامعة ورحباتها يتنادون مجندلين من خلف الجراح فإذا البطل الصريع تشخب دماؤه وهى تصرخ فى الثرى الغالى هاتفة :

..... خذ مكانى يا رفيق فى الكفاح

واحمل سلاحى لا يخفك دمى يسيل من السلاح

وانظر إلى عينى أغمضتا على نور الصباح

وانظر إلى شفتى أطبقتا على هوج الرياح

أنا لم أمت ... أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح .

سرحت بخواطرى إلى أطفالنا الذين اندفعوا فى الشوارع والحارات . . . اندفعوا بروح مصر الخالدة يقذفون المستعمر بالحصى والحجارة جهد أيديهم الصغيرة فإذا لم تنل من المارد العتيد بلى ألعابهم وحصى أقدامهم صاحوا فى فورتهم حانقين : ياعزيز ياعزيز . . كبه تاخد الانجليز . .

سرحت بخواطرى إلى شعبنا الأعزل ولم تهدأ له ثائرة ، ولم يسكن له وجيب ، ولم يجز عليه الذل ، الذى أرادوه له . .

إلى الأمهات المصريات الذين استقبلوا الأعزاء المضرجين فى دماهم فانتحبت الأمومة فيهن وهتفت الوطنية . .

إلى ضحايانا . . إلى صرعانا . . إلى شهدائنا . . إلى الأبرار الذين عذبوا وشردوا وضيعوا فى سبيلنا . . إلى من صاغ الجلاء من عمره أو رزقه أو قوته أو أمنه أو ولده أو حريته . إلى كل أولئك الأبطال المعروفين منهم والمجهولين على السواء . . إليهم فى قدس مثواهم . . إليهم فى طهر ثراهم . . . إليهم فى نبل الفداء وسمو الوفاء تتجه ـيرنا والصغير بقلب شعب ووفاء جيل . . . إليهم جميعاً تتجه دموعنا وتاريخنا وحاضرنا وكل مافينا من كرائم الإنسان . .

وإذا كنت هنا فى مقام الاعتبار قاصرة عن إحصاء الملايين والجموع الهادرة التى شقت الطريق وعبدته وأضاءت أرواحها على طوله للعابرين فلا أقل من أن نضرب الأمثال للاقتداء . . . ونرسم المثل بعضا من الوفاء . .

يستهل سجل الثورة المصرية يا ابنتى بالفلاح المصرى ربيب الأرض الطيبة . . . الفلاح المصرى الذى حسبوه من طول حنوه على الأرض وتحديقه فيها قد انعقدت نظرته بها وشدت رأسه إليها فلا يجرؤ على السمو إلى فوق ، ولا يتطلع منه النظر إلى أمام ... وغرهم ظاهره ، وأغراهم صبره فأرهقوه وحملوه وحده ضريبة الدم ثم أخروه ليقدموا الأتراك من بنى جلدتهم والجراكسة من أتباعهم فإذا بالمارد العتيد يمضى إليهم ممثلا فى عرابى ... يمضى إليهم شاكى السلاح فى حصونهم القائمة على عرقه وضناه . ويعلنها صريحة مدوية تصك أسماعهم أن الحكم للدستور ، والولاية للشعب ، والقيادة للضباط من أبناء الفلاحين . السادة الحقيقيين لا عبيد الاحسانات .

وزلزلت الأرض تحت أقدام (توفيق) خديوى المأساة ! ولم يكن شجاعا ، ولم يكن ذكياً ، فاستمد الشجاعة التى افتقدها فى نفسه

من وزير بريطانيا فى مصر الذى خرج فى ظله لمواجهة عرابى فى ساحة عابدين . . أما الذكاء فقد أغناه عنه أيضا الوزير الصديق بما لقنه للموقف من كلمات . . ولكن شمس ذلك اليوم على كل حال لم تغب إلا على مجد لعرابى وقومه فقد حصل على إجابة بعض طلباته ووعد بالباقى . وكان نزول صاحب السلطة صنيعة الأجانب من الأتراك والانجليز على مطالب المصريين الفلاحين وانصياعه لرغباتهم كسباً ظافراً للوطنية المصرية آلت بعده ألا تهدأ أو تنام . .

ومن ذلك اليوم توالت نذر الوطنية المصرية على توفيق وأشياعه فلم يفطن بطبعه الأجنبى إلى أن مايشهده إنما هو روح مصر الخالدة التى لاتقهر أو تضام ! فلم يشأ أن يحاسنها ليعيش ، أويناصرها ليبقى، بل ركب رأسه واتبع هواه فضيقت الوطنية المصرية عليه الخناق. وهنا استنصر انجلترا التى كانت مترصدة متحفزة . فافتعلت كعادتها حادث المالطى لتسلل منه إلى الدفاع عن الإنسانية أو احتلال مصر . . وضرب قائدها سيمون بأسطوله الاسكندرية وحاصر بوارجه الساحل الذى رد « فريزر » مدحوراً سنة ١٨٠٧ .

وبدأت المعركة وهبت مصر متسعرة من وراء عرابى لخوضها . وكان النصر فى جانبنا بادىء الأمر حتى إذا لم تقو انجلترا على عرابى وجيشه لجأت إلى الخديعة والرشوة . فاشترت عرب الصحراء واشترت أتراك القصور . . وكانت تعرف كل دخيل على مصر وإن حمل اسمها . . وكرت على عرابى وجيشه فلم تُجد البطولة ، والغدر يفت فى عضدها . ولم تؤت الشجاعة ، والخنجر المسموم يمعن فى ظهرها . .

وتم لتوفيق وانجلترا ما أرادا . وخرج الأثيم ولم يخجل من العرش الذى يتربع عليه ليستقبل جيش الاحتلال ! . وانتقم من الوطنية المصرية التى عرفت حقها فنازعته عليه ، بنفى عرابى وأنصاره ! !

هل هدّ النفى والهزيمة مصر ؟

كلا . إنها — فقط — الجولة الأولى . .



سار الشعب بجموعه الهادرة المتحفزة وراء عرابى إلى ساحة عابدين لمجابهة توفيق فى البداية .

وسار الشعب ثائراً محموماً وراء عرابى لمقاتلة الانجليز . وتبرع الشعب لجيش عرابى بالطعام والكساء والسلاح فوق ضريبة الدم التى دفعها سخياً راضياً متحمساً . وكاد يكتب النصر له لولا خيانة الغرباء عنه، ووشاية الدخلاء عليه ، وطيبة القيادة فيه حتى جازت عليها الخدعة فترددت فى ردم القنال وكان فى ردمها لو نفذه عرابى اندحار الانجليز وصدهم .. ولكنه ما كان ليستطيع أن يتخلص من رواسب النفس المصرية التى تهوى السماع ، وتسرع إلى التصديق، ولا تحتاط للأمر قبل وقوعه بل تتيقظ حيويتها فجأة ساعة الخطر . . ولهذا أصل من طبيعة الوادى وفيضان النهر . . ولكن عرابى والشعب خاصة بعد هذا كله أدى واجبه وأرضى ضمير الحر وشرف المواطن . . ومن هنا يرد السؤال: من أين هذه التعبئة الشعبية ؟ وهنا تتراءى صورة المصلح الداعية جمال

الدين الأفغانى الذى دوى صوته بالإصلاح فى جوانب الشرق كله . . جاء إلى مصر فأذهله أن يرى الحاكم يبتز الشعب ويسلب ماله ويمتص دمه ، ثم يجد من يسبح بحمده ويعدد نعمه ويهنىء الشعب المنكوب به . بنعمة وجوده وعدالة حكمه . . ! !

ثار جمال الدين على أدب النفاق الذى يمدح الظالم وهو يمقته . فأهاب بالأدب المصرى أن يتجه إلى الشعب وينغمس فى حياته ليصورها فى صدق ، ويطب لها عن مكابدة وإحساس. ولم تخب دعوته إلى أدب الحرية فكان من تلاميذه الشيخ محمد عبده الذى استطاع أن يقول : (إن الحاكم وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم . ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل .)

عمل الشيخ جمال الدين الأفغانى على إنشاء الصحافة الحرة التى تتكلم باسم الشعوب لا الملوك . فشجع أديب إسحق ـ وكان من تلاميذه ـ على إصدار جريدة (مصر) . ووقف من ورائه يرسم له الخطة ، ويستكتب له تلاميذه الأحرار . وكان يغذيها بمقالاته بإمضاء مستعار . ثم أغرى الأستاذ تلميذه بالانتقال إلى الاسكندرية

حيث أصدر جريدة (التجارة) وبدأت الجريدتان تعملان عملهما في إيقاظ الجماهير فأغلقهما رياض باشا.

لم يفتر جمال الدين الأفغاني ولم تهدأ فورته فاتخذ من بيته ومن المقاهي بل ومن المحافل ميادين لدعوته .. كان مدرسة متنقلة. وتتحلق حوله الندوة أنى سار وتتعلق العيون بشفتيه. ويلمح الرجل الذكي تفتح النفوس المصرية له فيكيفها على إرادته ويطبعها على مبادئه ويلهب جذوتها بروحه . . . كان يستنهض عزائمها ويستثير نخوتها. كان يصرخ في قومنا على عهده مؤنباً مستفزاً من غيرته على واقعهم وإشفاقه على مصيرهم.

(إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وربيتم في حجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين. تسومكم حكوماتكم الحيف والجور وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون، بل راضون، وتستنزف، قوام حياتكم — التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط، وأنتم صامتون! فلو كان في عرقكم دم فيه كريات حيوية. وفي رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية

لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . ثم ينفذ بسامعيه إلى الماضى العريق فيقول كمن يوقظ النيام :

(انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ومشاهد سيوه وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء . !

وعلى وقع هذه الألفاظ المتقدة المتأججة صرخت الدماء فى عروق عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية وسعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ والأحرار ممن ناوأوا الغاصبين وروعوا أمنهم . فكان عملهم بمثابة حلقات متصلة فى سلسلة المقاومة الشعبية التى توجت سنة ١٩٥٤ بالجلاء .

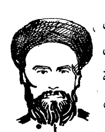
وأحس توفيق الخطر داهما فاستدعاه إلى قصر عابدين وقال له : (إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة)

وهنا انبرى له جمال الدين قائلا (ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير

محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم) ثم نصحه بإشراك الشعب فى الحكم وإجراء الإنتخاب . وخرج من عنده أشد تحمساً لدعوته.

ولماضاق توفيق بداعى الاستقلال والمنادى بحقوق الشعب نفاه من مصر! (لأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش المجتمعة على فساد الدين والدنيا . .)

أليس من حق هذا الرجل العظيم أن نحيى ذكراه فى يوم النصر وعيد الجلاء ؟



استطاع توفيق أن ينفى جمال الدين الأفغانى من مصر ولكنه لم يستطع وقوى الظلم معه أن ينسخ من القلوب المصرية الحرة اسمه، أو من العقول المصرية أفكاره .. وأنَّى له أن يمح قوله من كثير وعاه عنه الأحرار :

« .. وأنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت مايسد الرمق ويقوم بأود العيال . . لماذا لا تشق ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك ؟ »

هذا اللهيب صهر الكثيرين ولمعت على ضوئه أسماؤهم . . . ومن هؤلاء عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية الذى ما كاد يسمع هذه الآثار حتى عرف طريقه . فشرع القلم فى صحيفتى (الوطن) و (التجارة) . وكانت الصحيفتان إلى جانب صحف ذلك العهد كـ « نزهة الأفكار » و « مصر » و « أبو نضارة » قد استنت المعارضة السياسة لأول مرة . . . وتفاعلت دعوتها مع كبت الملايين ورهقهم وتململهم فظهرت دعوة

أخرى إلى إنشاء مجلس نيابي لم تأت سنة ١٨٧٩ حتى استطاع نوابه أن يقولوا في ردهم على خطاب العرش: (نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها، المدافعون عن حقوقها، الطالبون لمصلحتها!)

وعرفت نفس النديم الثائرة في الصحافة رسالتها. فلما أبعد الأفغاني العجيب عن مصر أصدر النديم مجلته (التنكيت والتبكيت). واتخذ من الفكاهة المصرية اللاذعة، والأسلوب القصصي، والمحاورة، والعامية القريبة إلى أبناء الشعب من رفاق طفولته وإخوان صباه... اتخذ من هذا كله وسيلة إلى إيقاظ الجماهير المجهودة المحروبة فندد بالظلم وحارب الدخيل ونبه إلى سر القوة الكامنة في العلم والعدالة الاجتماعية، كما صور فيها الحياة المصرية بمنازعها ومشاربها وأسلوب العيش فيها..

وأحس توفيق أن وراء الأكمة ما وراءها! فطارد الحرية في مكامنها، وحرم الاجتماعات، وقضى على الصحف المناوئة في رأيه، بل أعلن حقده على المصريين بتقرير حرمانهم من الترقية في جيشهم لتكون وقفاً على الأتراك والجراكسة الذين يتمى إليهم وينتمون إليه..

هب عرابى والجيش معه والشعب من ورائه . . ولما لاحت الثورة المأمولة للنديم هرع إلى القاهرة ليصدر مجلته (الطائف).

وأخذ يغذى الثورة من حنقه وألمه ورواسب السنين فى نفسه التى كابدت محن هـذا الشعب وعرفت ما يقاسيه فى الأزقة والحارات. وعرف زعماء الثورة النديم..وعرفهم..وكان ميثاقا.

انطلق النديم . • كان جذوة متنقلة تعدى الجموع . . . كان يفوّق (الطائف) إلى إسماعيل وجرائمه، والانجليز وصنائعهم، وتوفيق واستبداده . . . كان يخطب ويطوف الشوارع والأقاليم ويثير ويستنهض ويحفز ويهتف . . كان يلقن الجموع المذهولة من الحيرة ، المترنحة من الدوامة التى تعيش فيها ، كان يلقنهم ألفاظ النــــار فيردد من ورائه الرجال فى الشوارع ، والصبية فى الحارات ، حتى النساء فى نوافذ البيوت . . ورأى المراقبون لمصر أمراً عجباً وأحسوا الاهتزاز تحت أقدامهم! . . . إنها على وشك الانفجار . . وقد كان . !

اشتبك عرابى مع الانجليز بسيفه ، واشتبك النديم معهم بقلبه ولسانه وجنانه وحفيظته وقوى المظلوم كلها عندما تيأّس

فتستميت . . وانتقلت مجلته (الطائف) إلى القنال حيث تدور المعركة كما اشتهى توفيق التركى لمصر . . ودخل الانجليز القاهرة ليكافئوا الخونة ويعاقبوا الأبطال . . . وتوقع النديم مصيره فلم يمكنهم من نفسه . . وهالهم اختفاؤه ولمَّا يشتفوا . .

وجدوا فى طلبه وأغروا به . ولكن الشعب الكبير النفس كان الفرد منه تقع عينه على النديم فيعرفه عن يقين فيجعل نفسه فى خدمته! ساخراً من الجائزة المعروضة مترفعاً عليها! حتى رجل الأمن نفسه لم تخذله كرائم هذا الشعب العريق ومروءة هذا البلد الطيب، فيرى ضابط البوليس عبد الله النديم طلبة الحكومة ثم يتركه بعد أن يبصره بمعالم الطريق ! ! فلم يرشد إليه إلا جاسوس لم ينل منه مأربا فقد عمد الاحتلال بعد سنيه الأولى إلى مداراة هذا الشعب المنكوب به الحاقد عليه ، فأوعز إلى صنيعته توفيق أن يعفو عنه على أن يغادر مصر. فلم يعد إليها إلا فى حكم عباس سنة ١٨٩٢ .

هل هدأ بعد محن التجارب ؟ كلا! عاد فأصدر مجلته (الأستاذ) وشنها حرباً شعواء على الانجليز والمتسلطين على مصر من الأجانب. وبدأت نار الوطنية المصرية تتضوأ من خلل الرماد

الذى ذروه عليها لتستحيل إلى خمود . . ويضج القصر وانجلترا معا فتلغى (الأستاذ) وينفى النديم الثائر المهيج مرة أخرى . .

وكان هذا آخر عهده بمصر التى عاش من أجلها، وكافح فى سبيلها، وغضب لها وعادى فيها . وتشرد باسمها ثم يقضى عليه بعد العذاب والجلاد والحرمان أن يموت غريبا عنها غير ظافر منها حتى بحفنة من تراب.. !

ولكن ليذهب الجسم فى أى أرض مادامت روحه معها واسمه فى ذاكرتها، وتاريخه فى صفحة الأبرار من بنيها، والأحرار من دعاتها . . لقد ذهب الرجل وماذهبت ذكراه .



والآن يا ابنى أحدثك عن نبى الوطنية المصرية محمد فريد ماذا أقول ؟

هناك زعماء تصنعهم الأحداث على عجل فإذا انجلت غمرتها انكشفت عيوب العجلة ، واستعلنت حقائق النفوس ..

ولكن هناك زعماء يصنعهم الله حين يريد بأمة خيراً — فى إعجاز يشبه إعجازه فى تدبير الكون فيسويهم فى صفاء السماء ورحابة الأفق . وخصب الوادى الممرع وسخاء النهر . وذكاء الطبيعة التى تطرف كل يوم بجديد رائع ، وتروع كل ساعة بطريف معجب .. ومن هذا الطراز رسول الوطنية المصرية محمد فريد .

وهناك عظماء يجمع الوامق مآثرهم ، وينحى نواحى ضعف الإنسان فيهم ، ويقف الكاتب فترة ليست بالقصيرة على كل حال حائراماذا يأخذ ، وماذا يدع وكيف يسوق الحديث وكيف يلبس هذه الناحية أو تلك من جوانب الشخصية التى يزمع رسمها لتظهر

خلقا سويا إن لم يكن عبقرياً . . ولكن (فريد) يستطيع الكتابة عنه أى مصرى يمسك بالقلم . . . إنها عندئذ كتابة المواطن عن تاريخه ، والحى عن مآثر وجوده ، والإنسان عن أكرم ما فيه . . وهل أنفس فى الدنيا من النبل والتضحية والسخاء والفداء تلك المعانى التى تقوم بها الإنسانية الرفيعة فى الفرد من الناس كما تقوم بها فى الأمة الكاملة سواء بسواء . .

وهناك زعامات تصنعها حوادث عابرة فتمضى فى موكب التاريخ طيوفا عابرة،وزعامات تصنعها ظروف أكبر ، وعوامل براقة تسحر بها الجماهير حينا قد يطول وقد يقصر ، ولكنها تتضاءل أمام نوع فريد من الزعامة التى تبلور الأمة فيها ماضيها بأمجاده ، وحاضرها برغائبه ، ومستقبلها بآماله . . . ذلك النوع الفريد من الزعامة تخلقه الأمة من قدراتها وعزائمها وأشجانها ولواعجها وآلامها وآمالها وتشوفها وتلهفها وإصرارها وصبرها وعنادها وإيمانها وشجاعتها ويقينها ، ودعواها وبرهانها ، وتجاربها بأخطائها وصوابها . . والأمة التى تودع فى فرد ذخيرتها كلها تحس بوحى من فطرتها أنه أمين على دعواها فتوكله ، وتشعر بدافع من اعتزاز الحى بنفسه أنه يمثلها فتؤازره ، وتعتقد بإلهام

من روحها أنه لسانها فتؤمن عليه ، وساعدها فتركن إليه ، وقلبها فتخفق له ومعه .. وهذا بعينه سيرة مصر مع فريد وسيرته معها ... مثلهما مثل الأرض الطيبة تهب الثمرة اليانعة كل ما فى جوفها من عوامل النماء والاستواء.

وهناك أشخاص يخدم تاريخهم حزبا بعينه أو فئة بعينها ، أو ظرفا بعينه.. ولكن (فريد) تاريخه تاريخ وثبة ، وحديثه حديث يقظة ، ومآثره مآثر أمة نمته وحفظت اسمه كما حمل اسمها ، وسعت فى الحياة من ورائه كما سعى فى الحياة من أجلها .

إنه نشيد نلقنه أطفالنا ليتشربوا معنى الوطنية، ونور تستضىء به الشبيبة فى طريق الكفاح المصرى المثابر فى إصرار، المتوثب فى عزم ، المتوقد فى صدق ، المتطلع فى أمل.. إنه ذكرى عاطرة يستعيدها شيوخنا ليؤكدوا فينا معانى العزة والبطولة والفحولة والإباء والوفاء .

إن تاريخ فريد ومصطفى من الذخائر التى تدخرها الأمم لتنفق منها فى شدائدها، وتوقظ عليها رواقد العزم فيها . إنه نور ونار . نور نقبس منه كلما أظلمت الحوادث وأغطش الليل، وعزت القدوة ولزمت

الأسوة . و نار تلهب العزائم فتزكو ، وتحرق فيها شكوك المتشائمين فتنجاب عن الأفق سحائب سود لتطل منه شمس الحرية بمعانى الأمل والخصب والخير والنماء .

وهذا الطراز من الزعماء الذين يصنعهم الله بتدبير منه يظل على طول الزمن كسائر روائع الله موضعاً للعبرة ، ومجالا للبحث ووحيا للفن ، ومادة للتاريخ ، ومجلى للفخر ، ومثالا للقدوة تطوف به الأجيال ،وترف حوله الآمال وتعتز به القيم ، وتحج إليه الأمم فى تحنان قدسى ، وشوق عابد ، وجلال مهيب ..

كان إيمان محمد فريد بمصر كإيمان الرسل بما أنزل إليهم ، وقد لاقى فى سبيلها ما لاقى الرسل فى سبيل دعوتهم من عنت وكيد وتشريد وحرمان .

أرادوه أن يكفر بمصريته فما أطاع،وقسروه على أن يخفف حدته فما انصاع ، فلم ينفس عنهم إلا أن زجوا به فى غياهب السجن فإذا بالمحبس كعبة مصرية تهفو إليها الأرواح بمشاعرها، وقدس وطن تتجه إليه أمة بفضائلها ، وحمى شعب ترتعد منه دولة البغى وصنائعها . ويرى التاريخ فيعجب ويسجل انتصار

الإيمان على القوة ، وانحدار الطغيان أمام الوطنية المصرية الغلابة بغير سلاح . .

ولما ضاق به المستعمر اللدود ونفدت حيله أزمع تكبيله تكبيلا أشد وأنكى ولكن أنَّى لهم . . . لقد عبر فريد بحريته الحدود . . بعيداً حيث تقصر عنه أيديهم . . وحيث يتسع المجال لحربهم والصراع . .

إن مصر كلها لتحنو على فريد أبلغ من حنوه على ذلك الملك الصغير النائم فى المهد الذى يحدق فيه قائدنا الزعيم ويسكب عليه نفسه من خلال نظرات ظامئة هيهات أن يندى لها شوق ، أو يبل لها أوام فلا تتحول عن الوجه الصغير الحبيب إلا إلى مثيله فى الناحية الأخرى من الغرفة حيث ترقد صغيرته لا تدرى ما جرى به عليها وعلى أبيها المقدار ..

وهكذا يمضى وداع الزوج والوالد لأعز الناس عنده وأكرمهم عليه فى سبيل رحلة مجهولة سحيقة الأغوار . .

وتملى فريد من مصر وعب منها بعينه وفؤاده قبل أن يصعد إلى الباخرة . . فلما أقلعت لج به الحنين والحب فوقف على سطحها

وهى تبعد رويداً رويداً عن الإسكندرية وكأنها تقتلع قطعة من نفسه،وتقتطع بضعة من قلبه ثم تزيده .. ولكن جوى على جواه .. وهوى على هواه . .

ومع الأمواج المرتدة عنها عائدة إلى شاطىء الاسكندرية أرسل فريد رسالة من عينه بلت ظمأ الشاطىء وظل هو بصداه . .

وذعر الاحتلال المشنوء لحبوط كيده فلم ينفس عنه إلا تعطيله لصحيفتى فريد اللواء فالعلم .

ولكن (فريد) وحده كان صحفاً سيارة بل كان أشد فتكا بالغاصب من الصحف الموصدة. كان يجوب أوروبا من شمالها إلى جنوبها يدعو لمصر . فما من مؤتمر يعقد فى بلد من البلاد حتى يخف إليه وهو يغلى بالحجج التى تدمغ الاحتلال ، وتؤدى حق وطنه الجريح فى الاستقلال وحياة الأحرار . .

ونظم فريد صفوف شباب البعثات وكون منها جمعيات أبى الهول تكافح من ورائه وتحت قيادته من أجل مصر . .

كان متسعر الحماسة ، متوهج الروح والحس .. كم تحدى الأحداث وهى جسام ، وكم عاند المرض اوقـــد أغرته مدارات

الأطباء الذين أشفقوا من مصارحته فلم يفطن إلى كنه علته وتأثير كفاحه فيها أو لعل وخزها نبهه إليها ولكنها وقدة الحس.. ولكنها شعلة الروح هي التي أعانته على الجلد، وأمدته بالصبر، وأساغت عنده الألم والحرمان وألوان العذاب ومنها السغب والمتربة وهو الذي شب في النعمة وعرف صباه مهاه العيش، وترف القصور . .

كان الطبيب يصف له بلداً للإستشفاء فيسافر إليه ثم ينسى مهمته من أجل رسالته، ويهمل صحته من أجل دعوته . . .
كان يؤثر أن يطب لوطنه العليل الذي يخايله في غربته فتبعث خيال الضفاف الخضر في نفسه حنيناً تغرورق معه نفس فريد رقة . .

وفي جحيم اللهفة التي تتمنى ولا تنال، والوحدة التي تهفو إلى الرفيق ولا تظفر، والمرض الذي عز على طب الأساة، والحرمان الذي يكابد الصاب بلا شكاة، يتلقى البطل نعي ابنته الثانية فيثبت في مكانه مفزّعا مروّعا كسيراً ثم لا يلبث أن ينتزع نفسه من التياعه، ويستخلصها من ذهوله، ويفتح فمه ليتكلم، وتتعلق عيون المحيطين به بشفتيه فيذهلها العجب بعد الخطب حين.

سمعه ولما يفارقه عبء الرزء الذى يفدحه يتحدث عن مؤتمر الصلح ويفيض!!.

كان حب مصر داءه، وكان حب مصر دواءه فعند ما أقعده المرض إذ به يسمع نبأ الثورة بها فينتفض فى جذل ويغادر العليل المسجى فراشه فى قوة فوق طاقة الطب الذى استسلم معه للداء، ونزل فريد إلى ميدان الكفاح من جديد . .

ولكن القدر يأبى إلا أن ينتصر فنكأ رهق الجهد، وجبروت الكفاح جراحه . . . ورأى فريد نذر الخطر تزحف إليه غير متمهلة فصعَّد بصره إلى السماء فى وداعة وإيمان عُرفا عنه ليصلى للمرة الأخيرة من أجل مصر! مصر التى عاش لها، وجاهد من أجلها، ووهبها الروح والمال، ثم راح ملهوف القلب والجنان على رؤيتها فلم يكتب له اللقاء . .

ثم قدر لهما بعد حين أن تلقاه ويلقاها، تلقاه بما هو أهل له ولأكثر منه من التمجيد، وكأنها تمجد نفسها فيه، وتعلى مُثلها فى ذكراه، وتؤكد شخصيتها فى تشييعه، وتعلن أصالتها فى وداعه، وتحتفى به فينتصر بالحفاوة كل معنى كريم . .

وأودعت مصر ، إلى جانب مصطفى كامل ، محمد فريد .

ويوم تجمع الأرض الطيبة بين مصطفى وفريد فى بقعة طاهرة منها يجمع التاريخ فضائلنا فى صفحة ، ويشهد الزمن عظائمنا فى لمحة ، ويسرى إلى الأجيال المقبلة عبقنا فى نفحة تهب مع النسائم من ذلك المكان الذى يحل به مصطفى وفريد .

سلام على شهيدينا فى الفدائيين .

وسلام على بطلينا فى الصديقين .

وسلام على مصطفى وفريد فى الخالدين .



أعدك بأن أعود بك مرة أخرى إلى تاريخ وطنك . ولكن دعني أفتح عينك على أفذاذ آخرين من أوطان أخرى ... فالسِّير العالية ذخر الإنسانية كلها .. وأحد هؤلاء العالميين مدام كورى تلك السيدة العظيمة التي دفع أبوك كتابها إلى في إعجاب بالغ لأقرأه.. إنه كتاب مدام كورى أو قصة بطولة علمية لزوجين سعيدين ..

وأبواك لحسن الحظ يا ابنتى يعرفان هذا اللون الفذ من السعادة حين يأويان إلى مكتبتهما يقرآن ويتناقشان ويزنان الكتب ومبدعيها فى هناء روحى لا يضارعه إلا هناؤهما بك تعبثين بالقرب منهما بجوار أحد المقاعد بورقة بيضاء يلقيانها إليك ليشغلاك بها عن قراءتهما .. فينجحان فى شغلك عنهما ثم يعجزان عن شغل نفسيهما عنك... إذ لا يمضيان فى القراءة بضع صفحات ، أو فى الكلام بضع دقائق حتى ينجذبا إليك، ويلمساك بعيونهما ويعلقا تعليقات سعيدة من الفرح على حركاتك ولغوك وجلستك وورقتك التى تكون حيويتك الطفلة قد مزقتها نتفاً صغيرة يتبرع الهواء بنثرها فى أرجاء الغرفة كلها ..

غدا تعرفين القراءة فتذكرى كتاب مدام كورى.. إنه قصة رائعة من قصص الكفاح يا ابنتى .. لقد عرفت مدام كورى ، البلاء طفلة .. عرفته على رهافة حس،فى القهر.. فى الكبت..فى الحرمان .. فى البؤس بل كثبته وجها لوجه أمام سرير أمها المسجاة ولما تبلغ العاشرة بعد ! ولكنها عرفت بفطرتها الذكية طريق الخلاص فكابدت وقاومت وتجالدت واستعلت بالدرس والتحصيل حتى انتصرت انتصارا له تاريخ وهو بعض التاريخ ..تاريخ الانسان ..

ويبدو أن الموهبة كالمعدن النفيس لا تكشف عن نفسها إلا بعد نار تصهر . . . هكذا تقول على الأقل قصص البطولة وتاريخ الأبطال . .

لم تكن تشكو وما جدوى الشكوى . . إن أسبابها أحوج إلى الوقت كله . . . كانت مرفوعة الرأس وإن حملتها الأحداث أحيانا على أن تطامن من الرأس الشامخ لتقول للزمن : خطٌ . . ولكنها كانت دائما شجاعة يا ابنتى تعلن ابتسامتها عن إصرارها على المقاومة حتى الغلبة والظفر . . وقد نالتهما . . بعد سنين . .

كانت فى صباها الباكر تكافح من أجل وطنها ومن أجل لقمة العيش . . فى وقت واحد . . وأحدهما وحده يثقل ويرهق.. وكان جهادا رائعاً . . أشبه بصبر الرسل وعزم أصحاب الرسالات . .

كانت حرباً ضارية أعداؤها فيها الجوع والحرمان والشظف الجارح . . ولم يكن فى يدها من سلاح غير الصبر العنيد والجلد الصابر وكم كلفها الصبر . اقرئى بنفسك أيامها فى الحى اللاتينى كيف كانت تعيش فى حُجر السطح مع السماء بلا سقف ، ومع الظلام بلا نور إلا ذبالة من مصباح غاز ! . . أما الماء فعليها أن

تحمله من مكانه إذا شاءت، كما تحمل الفحم على مرات متوالية إلى الدور السادس كلما لسعها برد الشتاء . . . ومع هـذا الضنى كله وحدة مريره باردة لا يقطع وحشتها ظل انسان . . لقد تجردت للعلم تجرد الصوامع فاعتزلت الناس والمناعم لتخلص إلى الدرس وحده . حقاً كان جزاؤها موفوراً مشهودا ولـكن بلاءها فى رأيى كان أروع .

لقد عاشت حياتها كلها يوماً يوماً حتى أيام الشقاء. فليس أعظم فى ميزان الإنسانية من إنسان يصارع الفقر فيصرعه ، وليس أكرم على ضمير الإنسان من إنسان يصمد للحرمان أعواماً فى تجمل وصمت يحسبه الجاهل غنيا من التعفف ، قوياً من الصبر ، قادراً من إباء واستعلاء . . . وليس أعز على الإنسانية من إنسان تطحنه المحنة طحناً فيخرج منها سليما فى نفسه وضميره ، ويستعدى الطموح على الأيام والحادثات فيظفر . . وهو ظفر يستأدى صاحبه الكثير من التضحيات . . وليس أقرب إلى قلب الإنسانية فى جميع عصورها من إنسان يتلظى فى بسالة فيبكى قلبه وتفتر شفتاه . . فى مثل هذه اللحظات يشف المرء ويسمو فوق اللحم والدم وطبيعة الطين المر وزة فيه ويصير نظما من إرادة ، ووهجاً من حماس ، وحناناً

من الحب ، ودمعاً يجيش ولايفيض فإذا بصاحبه أشد إشراقا وأعمق صفاء . .

وقد كانت هذا كله مدام كورى يا ابنتى ... كانت عقلا عظيما وكانت قلباً كبيراً ... وقلما يجتمعان .

أنا لا أود أن تقرئى قصة حياتها قراءة عجلان فإن مثل هذه القراءة لا تحصى الدقائق الفريدة فى حياة العظيم . وهى لا تغرس القدوة التى أهدف إليها من قراءتك لهذا الكتاب،خاصة أن الذى كتبته إمرأة عن إمرأة .. أحدهما أم والأخرى ابنة .. إنهاجامعة الأمومة والبنوة تلك التى تجمعنا أيضاً الآن .. إن مولدك قدجعل لمثل هذه المواقف شأنا خاصاً عندى.فأنا مفتونة من وجودك بكل ما يتصل بالأمومة والبنوة ، مأخوذة بهما فى كل صورة وعلى أى وجه حتى بين الحيوان والنبات ... ومن ثمَّ وقع منى كتاب مدام كورى موقعاً خاصا أرجو أن يجده فى نفسك أيضاً . . . فاقرئيه بحب وإمعان لتعرفى كيف يحقق الصبر الباسل المعجزات . . . قفى طويلا يا ابنتى مع العالمة فى مدام كورى . . واحنى عليها فى المعمل بجامع قلبك كله وهى تحنى أمام الأجهزة والآلات تعيد التجربة للمرة العشرين ... اسمعك تقولين إن ثمن المجد فادح . . . نعم هو

كذلك ياصغيرتى، ولكنه خير ألف مرة من حياة تافهة ماحلة لا غناء فيها ولا أثر بعدها على الأيام.

قلبى يدعو الله أن يجعل حياتك خصبة خالقة موعودة بتلك المباهج النفسية التى يسعد بها الخالقون وذوو الابداع . . . تلك الأفراح العظيمة التى يعيش فيها الموهوبون فى الفن أو العلم . . . قلبى يدعو الله .

صاحبى مدام كورى إلى مدرج السوربون حيث ألقت محاضرتها الأولى بعد وفاة زوجها الصديق . . وأنعمى الصمت فإن فى وقفتها — ذلك اليوم — وحديثها . واستهلالها . فى بعض هذا بله كله بلاغ .

اقرئى خطابها إلى ابنة أختها هانيا ... اقرئيه ياحبيبتى الصغيرة كلمة كلمة بل حرفا حرفاً إن استطعت . . اقرئيه وتأثريه فإن الذى ينفذ إلى نفسك من خلاله إنما هو وحى مخلوقة نادرة .

أوتصدقين أن هذه القديسة الراهبة فى محراب العلم قد اتهمها بعض صغار النفوس فى دينها بل وفى عرضها ! أو تصدقين ؟ تلك التى منحت جائزة نوبل مرتين وتسابقت جامعات العالم ومجامعه العلمية إلى تكريمها ؟ نعم حتى هذه أيضاً يا ابنتى تطاولت إليها فى أفقها

العالى جائحة السباب والاتهام ! وهكذا قضى على العبقرية فى كل عصورها أن تدفع للحسد والغيرة ضريبة التفرد والامتياز.

ومن حسن الحظ يا ابنتى أن الضريبة على فداحتها لا تعوق دافعيها عن المضى فى طريقهم المرسوم بل لعلها تلهب عزمهم على مواصلة المسير.. فإذا حصحص الحق ارتفعوا درجات تزيد البعد بينهم وبين شانئيهم اتساعا وغوراً! فإذا هم قابعون فى الثرى، وإذا برسل الانسانية قد بلغوا الثريا نباهة ذكر وسمو مكان.

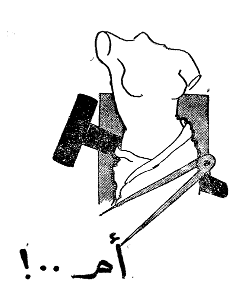
قدرى بلاءها فى حرب سنة ١٩١٤ فقد صفت إنسانيتها فى تلك الآونة بما لم تبلغه فى أى وقت آخر... إن الذى يصبر على الويلات فى سبيل مستقبل أفضل، عظيم بلا شك.. ولكن الذى يخوض الويلات مختاراً من أجل غيره مضحياً فى صمت ، صانعاً المعجزات فى تواضع من ليس شيئاً.. هنا يجل الأمر عن العظمة ليرقى إلى القداسة التى تستحق الخلود.

لقد كانت مخلوقة نبيلة يا ابنتى. وفت زوجة كأغلى وأعز ما يكون الوفاء، وحنت أُما أرق وأعمق ما يكون حنان الأمهات، وأخلصت مواطنة ـ ولم تكن فرنسا إلا وطنا ثانياً لها ـ كأبر ما يكون الاخلاص للأوطان رغم جحود فرنسا الكافر لها! فهى

لم تفكر فى الأنعام عليها إلا تحت وطأة الخجل من الأوطان الأخرى التى كانت تسبقها دائماً إلى تكريم مدام كورى بالألقاب الشرفية والدرجات العلمية .

إن الرئيس هاردنج رئيس الولايات المتحدة لم يتجاوز وصفها بل لعله اقتصر فيه حين قال عنها إنها أدت كل فروض المرأة فوق ورغم عملها الساحق .

نعم سحقها عملها سحقا حتى ذهبت فى النهاية ضحيته كما قرر الطب بعد أن صعدت روحها إلى بارئها فى زمرة القديسين والشهداء بعد أن دانت الدنيا بعلم عظيم .



أم ..!

So Big .. (إلى المجـد) .. (إلى العلا) .. إنه يا ابنتى اسم (فيـــلم) واسم طفل وشعار أم .. كم أتمنى أن ترى عيناك ويتأمل عقلك ويتعمق وجدانك هذا (الفيلم) .. إنه قصة امرأة فاضلة ترى الناس أحد اثنين : قمحاً أو جوهراً .. هـكذا كانت تقول دائماً منذ بدأ الفيلم . وهى تعنى أن الناس ينقسمون إلى

بدويين . . . عمال . . . يقوتون الحياة ويصنعون ضرورياتها ، ومفكرين وفنانين وخالقين ينضرون الحياة ، ويرسمون مُثلها ، ويوشون أحلامها ، ويخلقون قيمها . .

آمنت السيدة بهذا فلما أنجبت طفلا أطلقت عليه : «So Big» كان إذا رفع يديه فى عبثه إلى أعلى وهو فى اللفائف بعد . تتفاءل وتتمتم «So Big» إنك تريد أن تلمس النجوم.. أن تطاولها.. وستفعل ! . . وحدت هذه الروح الطفل فى أطوار حياته .

وحدث أن اضطرت الأم وطفلها إلى الكفاح .. إلى مصارعة الحياة .. إلى مجالدة الأيام .. إلى حرب الزمان .. فتماسكت وقارعت الخطوب بعزم حديد وصبر شديد وجلدعات حتى انتصرت على الأيام والأحداث . وانصهرت نفسها الذهب فى بوتقة الزمن ، وخرجت منها نقية وضيئة كالمعدن النفيس . .

وفى المعركة الدائرة بين السيدة النموذج وبين الأيام ، تعلم الطفل الكثير وكابد ولمس كيف تنتصر النفوس الكبيرة وكيف تخلق . . ألم تخلق أمه باستماتتها فى الكفاح منه رجلا ؟ ألم ترق به إلى « الجامعة » وتضع فى يده شارتها « دبلوم الهندسة » ؟

ألم تشربه هدى الفن وتطبعه على حبه ؟ . الفن الأخلاق . . الفن الجمال . . الفن هبة السماء . . الفن عطر الحياة . . الفن سنا الدنيا وجوهرها · · هكذا كانت تلقنه ·

واعترضت حياة المهندس الشاب ، زمنا ، فتاة من عباد المال كادت تهوى بقيمه ومعنوياته . ولكن الفن فى شخص رسامة طوح بها ! وعرف الفتى فى النهاية أن الفن هو الأبقى · · هو الأسمى · · هو الخلود . .

* * *

ما رأيك يا ابنتى فى هذه الرواية ؟ كم تعجبنى الأمومة الخالقة . . كم تأسرنى الأمومة المبدعة . . إنها من الروايات التى يعيشها رائيها زمنا بعد انتهاء العرض . .

إن كل ما يتصل بالأمومة والبنوة يذكرنى بك . وكل ما يتصل بالأمومة والبنوة من واجبى أن أسجله لك . .

إنى أتمنى على الله أن يكون لك فن . . أن يهبك تلك القوة السحرية الخالقة . . أن يمدك بروح منه . إن الفن من الله يا ابنتى . . هذا إيمانى .

هبها الفن يا إلهى تنضر بيديها الأشياء، وتوش بروحها الحياة وتنغمها . . هبها الفن يا الهى لتتألق ابنتى وتسمو . .

هبها الفن يا إلهى يجُد كنزها بذخائره . .

هبها الفن يا إلهى يجرِ الخير على يديها أنهارا . .

إنى أضرع إليك يا ربى . . . وإذ ترقى ضراعة الأم إليك، تفتح سماؤك أوسع أبوابها . . .



ذهبت مع والدك بعد أن تناولت عشاءك وأخذت جدتك تضاحكك وتلاعبك كما عودتك قبل نومك لتستقبلى النعاس ناعمة هانئة . . وفى أثناء عبثك ولغوك تسللنا من البيت لمشاهدة فيلم (القناع الأزرق) معتمدين على رعاية جدتك لك وهى قبس من عناية الله فى حدبها ورحمتها .

إنى أحدثك للمرة الثانية عن فيلم شاهدته . وما ذلك إلا لأنه يتصل بى وبك ، يمت إلى بنوتك وأمومتى . . . كان الفيلم معرضاً للأمومة . استهل بمنظر الأمهات فى مستشفى للولادة وقد دخلت عربة الأطفال الكبيرة وعليها مواليدهن . وبدأت الممرضة تحمل من العربة إلى كل أم وليدها . . . ولا أريد أن أصف لك فرحة الوالدات بالكنوز المجسدة تضعها الممرضة بين أيديهن . . فمثل هذه العاطفة أكبر من الوصف ، وهو بعد هذا يفسدها . . ولكنى سأصف لك إحداهن وهى بطلة (الفيلم) التى تعلقت عيناها بالممرضة فى كل خطوة تخطوها وحركة تأتيها . . . كان وجهها يشرق بالأمل كلما اقتربت الممرضة من العربة . فإذا حملت طفلا من العربة تشبثت عيناها بها وانتظرت أن تحمله إليها كما حملت إلى الأمهات أبناءهن . . . ولكن الممرضة كانت فى كل مرة تدنو منها بالصغير بين يديها ثم تسلمه إلى أمه فى السرير المجاور لها عن يمين أو شمال .

وقلق كيانها كله فى سريرها وكثر تلفتها . وزاغ بصرها وهى ترى آخر أطفال العربة يحمل إلى . . أم أخرى أيضاً . ونادت الممرضة فى التياع حبيس وسألتها عن طفلها فأنبأتها أن الجواب

عند الطبيب الذى سوف يخاطبها فى الأمر بعد قليل . . وأحست المسكينة الكارثة تزحف إليها وإن جاهدت ألا تصدق إحساسها . من أمل . . وسرعان ما دخل الطبيب وأنهى إليها كالمعتذر ، ما كانت تخشاه . .

حسبى أن أقول لك إنها انتحبت انتحاباً مراً ولا أزيد . . فإنى أريد أن أجنبك الألم ما استطعت . .

وخرجت الثكلى من المستشفى لتبحث عن عمل لأن زوجها والد الطفل الذاهب كان ضحية تعسة من ضحايا الحرب . . وكان القدر قد فرغ من تسجيل مهنتها فى الحياة فصارت تنتقل من بيت إلى آخر لتربى الأطفال . . أطفال الناس وتفرغ حنان صدرها كله فيهم . . وكانت يا ابنتى مخلصة فى مهمتها إخلاصا يدهشك لو رأيته . . كانت تحنو على الطفل منهم حنو أم . . ألم تكن أما لم يتسرب من مذخور قلبها غير قليل فى أيام قليلة . . وبقى الكثير حيث هو . . بل لعل الحرمان زادها إرهافا ووقدة ورقة . . كانت تغدق من نفسها وراحتها على الملائكة الصغار الذين سعدوا بصحبتها وقيامها عليهم . . أوتصدقين يا حنان أنها ضحت بسعادة الزوجية وما تفيئه من نعيم العش ، وهبة

البنوة، وعز الأمومة فى سبيل أحدهم، وهجرت الزوج الواعد إلى غير رجعة لتعود إلى الطفل الربيب؟

وعنت بآخر سبع سنوات متعاقبات فى غيبة والديه انقطع أثناءها مايرسلانه إليه! فلم تتخل عن الطفل بل عملت وكافحت لتعول نفسها وتعوله.. ولما عاد والدا الطفل، أرادا انتزاعه منها فلم تملك أمام هذا الجحود المنكر، والنكران الجاحد إلا أن تفر به.. تفر بسبع سنوات من عمرها.. ولكنها اعتقلت وحوكمت وسلم الطفل إلى والديه.. ولكن محاكمتها ألصقت الجريمة عن حق بأصحاب الحق الشرعيين وارتفعت بها درجات.. لقد تأثر رجل البوليس القوى تأثراً عميقاً حين نشجت أمامه قائلة على مرأى ومسمع من أم الطفل:

«ماذا تعرف هى عنه؟ إن الولادة ليست كل شىء، وهى وحدها لاتجعل من الوالدة أماً إن أعوزها الحنان الدافق الموصول.. إن الحنان وحده هو الذى يوجب لمانحه الحب والتقديس... لمانحه أياً كان ولا دخل للولادة فى هبة القلب هذه، كما لا دخل لها فى الجزاء... أنا التى عشت معه حياته لحظة

لحظة ... ماذا بذلت هى من أجله عندما مرض بالسعال الديكى ... ماذا صنعت عندما مرض بالدفتريا ؟ هل جأرت مرة بهذا الدعاء ؟ يارب هاك حياتى نخذها واحفظ عليه هو الحياة ! ! »

صدقينى يا ابنتى أنى انتفضت من كلماتها هذه . . . اغرورق قلبى رقة ، واغرورق دمعى شفقة . . . واختلجت كلى اختلاجة لا أصفها لك لأنى لا أدرى السبيل إلى وصفها . . ولأنك سوف تدركينها على حقيقتها إن شاء الله عندما تصيرين أُما . .

لقد طوح الزمان بالمرأة النبيلة مطارح كثيرة. ولكن المطاف انتهى بها إلى ربيب لها طبيب راحت ترتجى طبه وهى لا تعرفه، ولكنه هو عرف فيها مربيته العطوف. ودعاها الى بيته حيث أعد لها أعز مفاجأة . . ما كادت السيدة تطأ أكناف بيته حتى التف بها أولئك الذين ربتهم جميعاً ! شباباً كضحى النهار فيهم الألق والدفء وقد صاروا أزواجا وأمهات وآباء ! ! ولمعت العينان الذابلتان ... واهتز الجسم المصوح ، وهش الخريف للربيع . .

وأغمضت عينيها لحظة فإذا بها تراهم فى شبه حلم أطفالا تعالج عبثهم بالحيلة ، وتجيب على أسئلتهم بالقصة . . . وإذا بطفلى المضيف

يوقظانها من حلم جميل لتفتح عينها على جمال آخر .. على طفولة جديدة هى بعض ثمرتها أيضا ..

ومرة أخرى تصحو الأمومة الغافية فيها بحنوها ورقتها وفدائها لتتعهد أطفال .. الآخرين .

٭٭٭

لقد عشت يا ابنتى فى هذا (الفيلم) أياما بعد مشاهدته وحوادثه لاتنفك تمر أمامى متسلسلة ومتقطعة .. ولكن الحادث الذى كان يشغلنى أكثر من غيره .. قصة السيدة النبيلة مع طفلة لأم كانت تشتغل بالتمثيل . وهى مهنة كالتيار تجرف صاحبها وتدور به فلا يدرى مما حوله شيئاً . وهكذا كانت الأم الممثلة ليس بينها وبين ابنتها إلا تحيات خاصة يتبادلانها فى صباح أو مساء .. وقد لايلتقيان أياما أو أسبوعا كاملا ..

وحين تفتقد البنت عطف مها تلمس عطف مربيتها يحيطها ويرضيها فتكن للسيدة إعزاز الأم .. وماكان أشد دهشتها حين أتتها يوما ومعها صديقة لها وقدمتها الى صديقتها باعتبارها أمها !.

لقد فرحت السيدة التى تنطوى على غريزة الأمومة بوفاء

البنت ، وجزعت السيدة النبيلة أيضاً لانصراف البنت عن أمها الحقيقية وإسقاطها لها من حسابها .. وتهرع بكل ما فيها من كرم النفس إلى الأم الممثلة وتعلن إليها رغبتها فى اعتزال العمل عندها .. وتدهش الأخرى وتستبقيها باسم حب أطفالها لها .. ولكن السيدة المربية تخبر الأم أنها بسبب هذا الحب ترغب فى الفصل عنهم .. وتقص عليها قصة ابنتها وتنصحها بالالتفات إلى أولادها حتى يحسوا وجـــودها ويقوموه !! وترتد الممثلة إلى رشدها كمن يفيق من حلم مزعج وتقدم بدورها استقالتها من التمثيل ..

وهنا يا ابنتى مس قلبى .. لقد خفت أن تنصرفى عنى لأنى أعمل أنا الأخرى .. ولكنى فى حديثى مع نفسى أمنت بعد أن قارنت بين وضعى ووضع الأم الممثلة .. لقد كانت تلك تنصرف عن ابنتها ليالى وأياما .. وإن رأتها فلمحا ، وإن كلمتها فخطفا . ولكن عملى لا يحجبنى عنك إلا ساعات قليلة من نهار قد يحدث أن تكونى نائمة أثناءها .. وأنا فى عملى لا أعهد بك إلى مربيات ولكنى أضعك بين يدى أمك الأخرى ... أضعك بين يدى أمى وأمك ، وحنوها عليك ليس عليه زيادة لمستزيد ... وتلك

كانت مشغولة بعملها ، وأنا مشغولة بك فى عملى وبيتى على السواء .

قد يحدثك غيرى عن لهفتى وتحنانى.. عن هودتى .. عن مغالاتى بك . . إن الأحاديث بينى وبين أمى تدور كلها عليك فهنانى كله أن تقص علىّ ما أتيته من حركات ، وما أحدثته فى غيابى من لغو . . . وقد عرفت جدتك هذا فصارت من تلقاء نفسها عند دخولى تسرد لى أخبارك فى أكلك ولعبك ونومك وضحكك وعبثك وتجعل منك كل يوم قصة شيقة بما تضيفه من عندها من وشى ومبالغات أدركها بعقلى ولكنى أتظاهر بالتصديق لأسرها . وهل تبالغ هى وتتوسع إلا لتظهرك بمظهر الطفل الذكى الواعد.. إنها تريد أن تؤكد نعمتك ، أولعلها تزهو بثمرة تعهدت غراسها فهى تعلن عنها فى غبطة السعيد .

وما إن انتهى إلى هذا وقد شغلنى عن متابعة العرض دقائق، حتى أعود إلى حديثى مع نفسى بعد انتهاء الفيلم فأقارن من جديد بين وضعى ووضع الأم الممثلة . . لقد كانت تلك متوفراً لديها كل ترف الحياة ونعيمها فهى تعمل حباً فى الأضواء وبريق المسرح ، وشهوة الظهور ، ولكنى أعمل متكاتفة مع والدك مكافحين معاً

لنوفر لك ولمن عسانا نرزق به من إخوتك حياة رخية كريمة تعين على تنشئتكم تنشئة غالية عزيزة لا يعنينا أن تكون مترفة بقدر ما يعنينا أن تكون ذات قيمة حقيقية وذات أثر كريم . .

فأنا بعملى لم أقصر فى واجبى نحوك ولكنى أؤديه فى صورة أخرى تقتضيها طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، ويقتضيها طموحى البعيد المدى فى أن أخلق من عشنا جنة حالية تطيب لك ، وتشرف بك وبها تشرفين .

من حديث البنوة

أرأيت ياقارئى الصديق كيف أن عاطفة البنوة أعمق العواطف الإنسانية . . قد يبر الأبناء الآباء ، وقد يتعاطف الإخوة ، وقد يتحاب الأزواج . ولكن حب الوالد لبنيه فريد فى صفائه ونقائه وعمقه . . إنه نهاية الكمال لأنه منزه عن الهوى ، بعيد عن الغرض ، غير منتظر جزاء . . هذه العاطفة القوية قوة الحق ، الصافية صفاء الخير ، الخالدة خلود الزمن ، هى سر كبير من أسرار الحياة تحفز فيها إلى العمل ، وتدفع إلى الكفاح ، وتغرى بالفضيلة فى صور شتى . .

حبس العادل عمر بن الخطاب ، الشاعر الحطيئة لبسطه لسانه فى الناس ولم يقبل فيه شفاعة فما إن استعطفه ببيتيه :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ‏ ‏ ‏ ‏ زغب الحواصل لاماء ولاشجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ‏ ‏ ‏ ‏ فاغفر عليك سلام الله ياعمر

حتى اهتز الأمير الوالد ودمعت عيناه وأطلق أسيرة للصبية برآ بهم ورحمة ..

والبنوة تغرى بالفضيلة وخاصة بنوة البنات. فوالد البنات يبغض الشر. ويعاف المنكر، ويتحرج من السوء قولا وعملا. وهو يرعى الله ليرعاه فى بناته. وآباء البنات أرهف شعوراً من سواهم وأحرص على سلامة المجتمع من الخوف الذى يلازمهم على أعراضهم وهى غوال.

هذه البنوة التى يوغل أثرها فى الحياة إلى هذا المدى لها فى الأدب أثر مماثل. وهل الأدب إلا تصوير للحياة تبدو فى صقاله صورتها كاملة بما فيها من محاسن وعيوب؟

ألهمت البنوة الأدب آيات رائعات سجلها الشعر آنا والنثر حينا. فمن وحى البنوة فى النثر رسائل، ومن وحيها فى الشعر غناء ومناجاة .. ومن منا لايطرب قلبه وهو يردد مع شاعرنا رامى ذلك النشيد العذب:

يابنى، ما أحيلى يابنى	أنت ظل مده الله علىّ
نعمة العمر وتذكار الصبا	والأمانى التى عزت لدى

لست أنساك جنينا خافياً في ضمير الغيب أدعوك إلى
أتمنـــاك لعينى قرة حين ألقاك وليدا فى يدى
أرقب اليوم الذى تبسم لى وترى آى الرضـا فى مقلتى
فأناجيك بألحان الهوى سابقات خاطرى فى شفتى
كلمات هى لامعنى لهـــا غير أن تسمع منى أى شى
فتراعينى ولا تقوى على غض أجفانك عنى يابنى

من منا لايخفق قلبه من أجل شوقى وهو يخاطب فقيد الطب الدكتور على إبراهيم :

لك عند ابنى أو : عندى يد لست آلوها ادكاراً وصياناً
دفع الله (حسينا) فى يد كيدالألطاف رفقا واحتضانا
لو تناولت الذى قد لمست منه مازدت حذاراً وحناناً
جرحه كان بقلبى ، يا أبا لا أنبيه بجرحى كيف كاناً
لطف الله فعوفينـــا معا وارتهنا لك بالشكر لساناً

ومن وحى النبوة فى النثر رسائل منها ماضمها كتاب (من والد إلى ولده) للمرحوم الأستاذ حافظ عوض . . ومنها ماتضمنه كتاب الأستاذ أحمد أمين (إلى ولدى) . ومن رسائل

الأول قوله : (لقد خبرت العواطف على جميع درجاتها وأصنافها فلم أجد عاطفة أقوى تملكا بالنفس ، وتمسكا بالحس من الحب الذى شعرت به نحوك منذ وجدت إلى اليوم .)

هذا هو شعور الآباء فما بالك بالأمهات . والأمومة كما قال الأستاذ المازنى عن حق أقوى من الأبوة (لأن الشعور الأبوى مرجعه إلى غريزة حفظ النوع كالحب وأساسه فى الرجل والمرأة واحد . والعاطفة موجودة ومردها عند الرجل والمرأة من حيث التكوين وما أعدتهما الطبيعة له ، ومن حيث طبيعة الحياة يجعل هذه العاطفة أقوى فى المرأة وأنضج منها فى الرجل ، ثم تجىء الصور الذهنية التى تحصل لكل منهما فتزيد هذه العاطفة وتضرمها . وهذه الصور عند المرأة حشد حاشد وبحر زاخر لا آخر له ولا نهاية ، فهى لا تسعها إلا أن تذكر ماعانت فى شهور الحمل وماجربت فى أطواره وأحست من حركات الجنين فى جوفها ، ثم ما كابدت من عذاب الوضع . وكم ألف ألف صورة تحصل فى ذهنها بعد ذلك مذ كان طفلها وليدا إلى أن يشب عن الطوق ويدخل مداخل الرجال والنساء . وكل حركة ومصة من ثديها وابتسامة ونظره وتعبيسه وعولة

وصوت ونهضة وعثرة وخطرة . كل ذلك منقوش على صفحة قلبها مرتسم على لوح صدرها ، مذخور فى رأسها . وجوها حافل بهذا الطفل، وحياتها كلها دائرة عليه غير منفصلة عنه ، وماضيها كان تمهيداً له وحاضرها مستغرق فيه ، ومستقبلها آمال منوطة به . وأخلق بهذا أن يعيننا على تصور روعة الأمومة وعمقها وسعتها وانطواء كل إحساس فيها ، وتسرب كل شعور إليها ومنها . ولما كان نصيب الرجل من هذه الصور التى تحصل فى نفس المرأة أقل وضال فلا عجب أن يكون غذاء العاطفة الأبوية أتفه جداً مما يغذى عاطفة الأمومة) .

وليس أدل على روعة الأمومة من هذين البيتين اللذين أثرا عن أعرابية كانت تناجى بهما وليدها . ليسا من رصين الشعر أو منضد القصيد ولكنهما عندى صورة نابضة للأمومة المتفتحة . كانت تلك الأعرابية ترقص ولدها وتقول :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى فى البلد
أهكذا كل ولد أم لم يلد مثلى أحد

هذه ألفاظ بسيطة ساذجة ولكنها سذاجة الفطرة الخالدة ، وبساطة النفس الإنسانية حين تنطلق على سجيتها . . إنى أسمع فى

تساؤل هذه الأعرابية (أهكذا كل ولد) خفقات قلب الأم..
أسمع لحنا خالداً . .

* * *

وإذا كانت البنوة فى الوجدان بحيث توحى هذه الروائع فإنها عند الحرمان أقوى ، وجنون القلب بها أعظم.. ومن وحى البنوة عند الثكل هذه الدموع ، ولعلها أصدق ما فى الأدب من آيات لأن قائليها نفثوها وقلوبهم تحترق. ومن بحر الدموع هذه الدفقة التى رثى بها ابن الرومى ابنه محمداً :

أريحانة الأنف والعينين والحشا
ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى
أعينى جودا لى فقد جدت للثرى
بأنفس مما تسألان من الرفد
كأنى ما استمتعت منك بضمة
ولا شمة فى ملعب لك أو مهد

ألام لمـــا أبدى عليك من الأسى

وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى

وكتب الأستاذ الزيات فى ذكرى وليده :

(والهف نفسى عليه يوم تسلل إليه الحمام الراصد فى وعكة قال الطبيب إنها « البرد » ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها(الدفتريا). لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة . ولكن ذكاءه وجماله ولطفه ما برحت قوية ناصعة تصارع العدم بحيوية الطفولة ، وتحاج القدر فى حكمة الحياة والموت !

والهف نفسى عليه ساعة أخذته غصة الموت، وأدركته شهقة الروح ، فصاح بملء فمه الجميل (بابا ... بابا) كأنما ظن أباه يدفع عنه مالا يدفع عن نفسه !)

وقالت أم خالد النميرية ترثى ولدها وكان قد توفى فى بعض الغزوات ودفن فى الغربة :

إذا ما أتتنا الريح من نحو أرضه

أتتنا برياه فطاب هبوبهـــا

أتتنا بمسك خالط المسك عنبر

وريح خزامى باكرتهــا جنوبها

أحن لذكراه إذا ما ذكرته

وتنهل عــبرات تفيض غروبها

حنين أسير نازح شــدقيده

وإعوال نفس غاب عنها حبيبها

هذه ليست شاعرة ولكنها أم تتلظى .. وقانا الله تجربتها .

أكثير بعد هذا أن يقول الرسول (الجنة تحت أقدام الأمهات)؟ وأن يوصى التنزيل الحكيم البنين بالآباء فى إكبار يدل عليه قوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ... إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ..)

وبعد :

فليعتبر الأمهات والآباء هذا الكتاب حديثا خاصاً لأبنائهم وبناتهم أيضاً فإنهم جميعا عندى « حنان » التى حمل الكتاب اسمها ورسمها لما أوحت به .. وأهدت بنوتها إلىّ معانيه .